

لماذا تأخر المسيامون ولماذا تقدم غيرهم

تأليف
الأمير شكيب أرسلان

مراجعة
الشيخ حسن تميم
القاضي الشرعي

منشورات دار مكتبة الحياة
بيروت - لبنان

جميع الحقوق محفوظة

طبعة جديدة ومنقحة

لماذا تأخر المسيحيون
ولماذا تقدم غيرهم



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الثانية

قصة « التخلف » بين المسلمين قصة حديثة ، بدأت منذ أن بدأ المسلمون يذوقون طعم « الهزائم المصرية » في بلاد المجد المفقود - الاندلس - ، ولا شك في ان المسلمين عموماً ، كانوا يتقبلون ما تأتي به الاقدار ، وما تسوقه اليهم الايام ؛ من مواقف انكسار طارئة ، أو نكبات ظرفية ، أو خسارات موضعية ، كانوا يتقبلون كل ذلك بروح مؤمنة ؛ وقدرة مطمئنة ، ونية خالصة من الشكوك والاوهام ، صادقة العزم على تحويل الاحوال ، وتغيير الاوضاع ، واقتناص الانتصارات بشق الوسائل والاساليب الشريفة .

والأمم كالأفراد ، تمرّ بها صنوف الاختبارات وتطيف بها انواع البلايا ، وتقلّب في حياتها بين ادوار العز والاستكانة ؛ والغلبة والمهانة ومن خلال صمودها في هذه الادوار ، وحفاظها على القيم ، يجري تصنيفها بين الأمم في قائمة « المتخلفين او النامين او المتفوقين » .

ولعلنا لا نجافي الحقيقة إذا زعمنا ان السؤال الرهيب « لماذا تأخر

المسلمون ؟ ، لم يكن ليرد على ذهن أحد من عامة المسلمين ؛ قبل منتصف القرن السادس الهجري . لسبب بسيط وهو أن السؤال في تلك الفترة ، كان غير ذي موضوع ... إذ لم يكن له أصل في واقع الحياة الإسلامية ، فسفينة «الدولة الإسلامية» تسير رخاء ؛ والهيبة وافرة ، والثروة أوفر ، وليس في ميدان الحضارات منافس ؛ ولا في ساحة الافكار والآراء نداء ولا مقارع .

أما فيما بعد ذلك ، فقد طرأت على « الوجود الاسلامي » شرقاً وغرباً تغييرات مهمة ، استوقفت الانظار واستقطبت الافكار ، الأمر الذي تكونت معه عناصر السؤال المرير : لماذا تخلف المسلمون ؟ وهذه التغييرات لا يمكن حصرها وتحديدتها في هذه المجالة ، إلا أن أهم هذه التغييرات وأمهاها هي :

أولاً - بروز الطاقة التخريبية الشرسة ، والروح البربرية الطاغية المتمثلة في موجة التتار الآتية من الشرق ؛ والتي اكسحت امامها كل مظاهر الحضارة ، وسحقت كل آثار العمران ، في أقصر فترة من الزمن - نسبياً - وفي حقبة ، كانت الأمة الإسلامية فيها نهباً مقسماً بين الدويلات ، وشيخاً متنافرة بين الطوائف والمذاهب .

ثانياً - بروز للطاقة العدوانية التعصبية ؛ المتمثلة في الحملات الصليبية الضخمة ؛ والتي كانت تتجهز من جهات أوروبا الأربع ، لضرب كيان الأمة الإسلامية في صميمها .

ثالثاً - بروز التحرك القومي الحاقدي ؛ المتمثل في تحالف ممالك «قشتالة» في الأندلس ؛ ونجاح هذا التحالف في قيادة «حرب الاسترداد» المقدسة التي شنّها ضد المسلمين .

رابعاً - اكتشاف البارود وتطوير استعمالاته الحربية ، وتوظيفه في ضرب

الحصون والقلاع الاندلسية ، وفي عملية إجلاء ستة ملايين مسلم من الاندلس وتشريدهم في سائر بلدان سواحل البحر الابيض المتوسط .

خامساً - احتدام حركة هدم البنية الاسلامية من الداخل عن طريق الانقسامات الفئوية ؛ والتحرّجات العنصرية والتجمعات الاقليمية ، والخلافات المذهبية وأخيراً عن طريق تشجيع الحركات الباطنية بشق اشكالها وصورها ومضامينها ، وتأثير هذه الحركة على مسار الدعوة الاسلامية .

سادساً - تشجيع التجزئة الادارية في ساحة الدولة الاسلامية ، ودعم حركات الانفصال والاستقلال تحت ستار القومية نارة والشعبوية نارة اخرى . حتى أصبحت الأمة خاضعة للعديد من الدويلات ، التي يناصب بعضها العداء لبعض .

سابعاً - شل الدعوة الى الاسلام كنظام حكم وأسلوب حياة ، وغط عيش وتمايش ، وسجن هذه الدعوة ضمن جدران المسجد ، وتقزيم مفهوم الدين بحيث لا يتجاوز نطاق العبادة والتعبد الشخصيين فقط .

ثامناً - التخلف للمام ، عن ركب الحضارة الحديثة ، وعدم متابعة النهضة العلمية في ميدان العلوم الطبيعية والصناعات وسائر مرافق الحياة .

هذه هي ، في رأينا أهمّات الاسباب التي تكوّنت منها عناصر السؤال المرير : لماذا تأخر المسلمون ؟ ولقد واجه الأمير شكيب ارسلان ، رحمه الله وأجزل فوابه ، هذا السؤال بشجاعة وحكمة وعلم ؛ ونسج له جواباً جامعاً ضمنه خلاصة علمه ، وزبدة تجربته ، وعنوان درايته ؛ ولا أحد ينكر فضل أمير البيان في التصدي للجواب عن السؤال المرير ، ولا أحد يتجاهل مفاعيل رسالة الأمير شكيب وتأثيراتها الايجابية في حياة الأمة الاسلامية .

إلا أن السؤال ، بكل أسى وأسف ، ما برح مطروحاً بالحاح ، وما

فتنت الاجابة عليه كلاماً جميلاً لا يتقدم بالأمة أمثلة واحدة نحو التقدم
الفعلي المنشود .

يقول أحد الأدباء : « أمران لا يحدد لها وقت بدقة » ، (١) : النوم في
حياة الفرد . (٢) : الانحطاط في حياة الأمة . فلا يُشعرُ بها إلا إذا غلبا
واستوليا .

ومن البدييات التي لا يجادل فيها أحد أن الاسلام « مبدأ » أمته الله تعالى
وأكملة وارتضاه لخلقه من أجل فلاحهم وسعادتهم وخير دنياهم ؛ بواسطة خاتم
أنبيائه ورسله سيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليه .

والمسلمون هم أهل هذا المبدأ المطالبون بحمله وتبليغه وتطبيقه والالتزام
به ، وبنسبة ما يلتزم أهل هذا المبدأ به يتحقق وجودهم ووجوده ، وبنسبة
ما يتغافلون عنه ويتجاوزون أحكامه ، ويتساهلون في نقض أركانه وتجاهل
أشراطه ، يتغافلون عن دورهم في الحياة .

وبعبارة أخرى : الاسلام هو قدر المسلمين .

وبعبارة أشمل : الاسلام هو قدر الانسانية .

وقد يصيب التخلف عناصر المسلمين ، أفراداً وجماعات ودويلات ايضاً ،
ولن يكون هذا لسوء حظ المسلمين وحدهم ، بل لسوء حظ الانسانية
جميعاً . لأن هذا المبدأ لا يخص العرب فحسب ، ولا يخص الامم والشعوب
التي دانت بالاسلام وحدها ، بل هو هدية الله وهدايته لبني البشر .

ولقد أتى على الإنسانية حين من الدهر ، اسلمت فيه قيادتها للمسلمين ،
وارتضت بحكم الاسلام ، فما جنت في ذلك الحين إلا الحضارة ، ولا عرفت
إلا السلام ؛ ولا ساد فيها إلا العدل ولا شاع إلا الخير .

فإذا جنت الانسانية بانحطاط المسلمين ، وتعطيل الاسلام ، وما هي

محاسن الحياة في ظل سيادة المادة والماديين ، والعلم والعلمانيين ؛ والحضارة الحالية والحضاريين .

لقد حرم اهل هذا العصر انفسهم من الدين ، ومن الصلة بالله ، ونسوا غاية خلقهم ومبدأهم ومصيرهم وقالوا « إن هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين » وآمنوا بمبادئ المادة واللذة والحرية المطلقة ، والقوة والانتفاع وتنافسوا في امتلاك الوسائل التي تؤدي بهم الى تحقيق تلك المبادئ ، وأدى بهم التنافس الرهيب الى اختلاط الوسائل بالغايات ، وفقدان تعادل القوة مع الاخلاق ؛ واختلال توازن المادة مع الروح ، فانطلقوا في ميادين العلم والتحقيق والتجربة من نقطة فاسدة: نقطة الاحاد والمادية ، ونظرة زائفة : نظرة أن الكون ليس له إله ، وأنه ليس وراء المشاهد والمحسوس شيء ، فاختل أساس مدنيتهم ؛ وعبدوا ذواتهم ، واتخذوا إلههم هواهم ؛ واستعبدتهم الآلة ، وفتك بهم العلم ، وفشلوا في معالجة ادوائهم فشلاً ذريعاً .

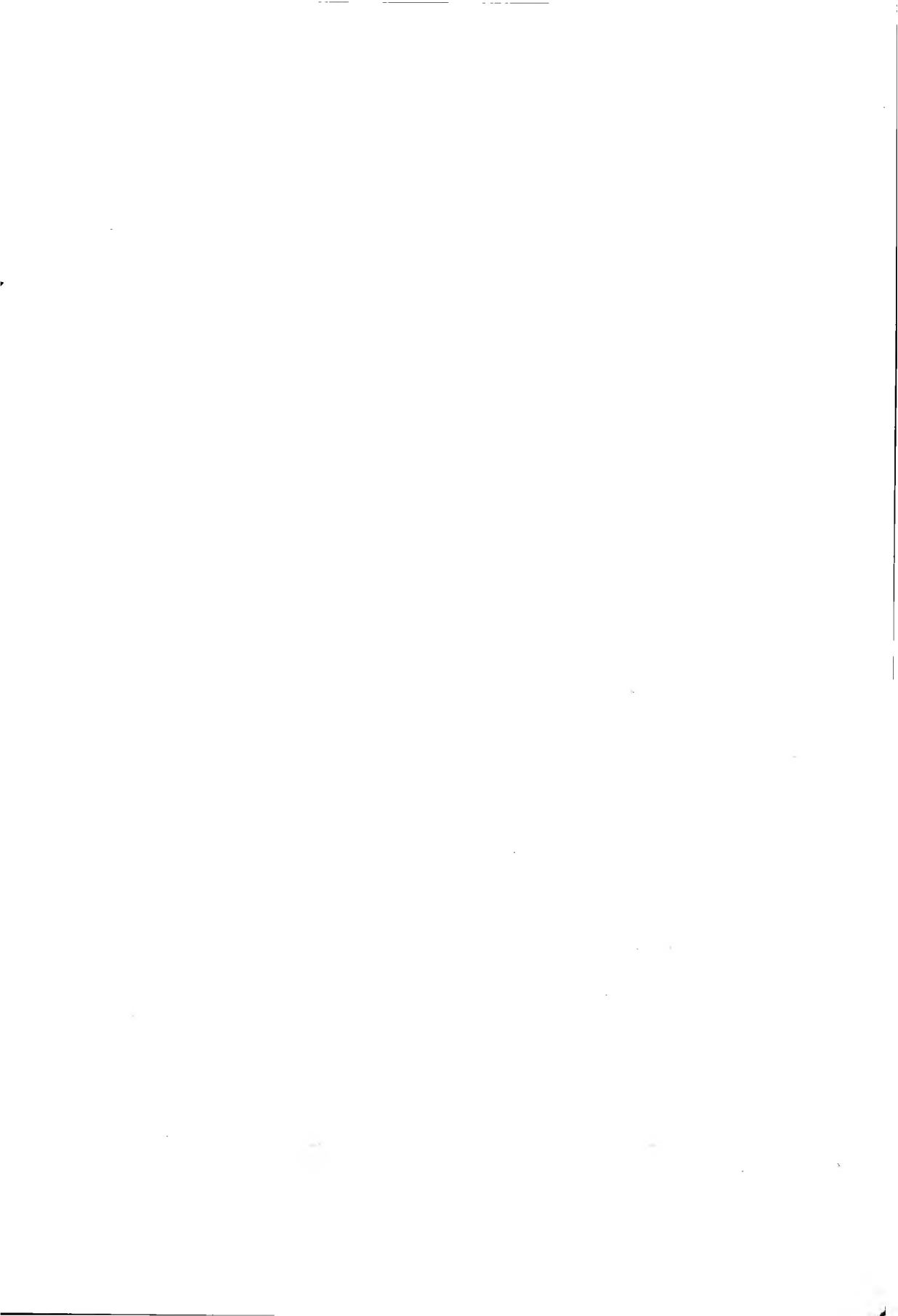
ومن هنا ، فان المسلمين مطالبون بالنهوض من كبوتهم وبالتخلص من آثار تخلفهم ، وباستئناف دورهم الانساني . لأنهم ، كما اثبتت التجربة ، هم حملة مشعل النور ، ويبيدهم مفتاح الخير ، وعندهم جواب كل مسألة ، وعلاج كل علة وسيكون من حسن طالع الانسان ان ينقاد « لرسالة » الاسلام .

ولئن وفق أمير البيان شكيب ارسلان ، في بيان أسباب تأخر المسلمين وأسباب تقدم غيرهم ؛ فان في توفيقه هذا ما ينير الطريق أمام هذه الأمة لتعاود القيام بدورها الحضاري مرة أخرى .

وتلك هي الغاية المرجوة من نشر الكتاب في البدء ، ومن اعادة طبعه الآن .

والله المستعان ، ومنه الهداية ، وعليه التكلان.

حسن تميم
القاضي الشرعي



بسم الله الرحمن الرحيم

نظرة عامة عن أمير البيان وصاحب المنار

١ - شكيب أرسلان ،

شكيب أرسلان ، امم أضاء في أفق الشرق العربي ، في مطلع هذا القرن ، فلأ الأبصار والأسماع ، وشغف به الأدباء ، وأكبرته العلماء ، وقدره السياسيون ، وغدا - خلال خمسين عاماً - كوكباً تروى الى جهده الأبصار ، وعلماً في الأدب والسياسة ، ومرجعاً في التاريخ والفلسفة ، وحباً في النقد والاجتماع ، وغاية في الترجمة والتحقيق .

ومع إكثاره في الانتاج ، ووفرة ما سال به قلبه وجادت به قريحته فان المعنى الجزل لم يكن يفارق كلمته ، والرأي السديد لم يكن يشوب عبارته ، كأنما كان البيان طوع بلسانه ، والسحر صنعة جنانه ، ولا غرو ، فقد نصح على منوال الأفذاذ من رجال الفكر والقلم ، ممن تتيه الأسفار بفرائدهم

وتزهو بقلاندهم ، وحاكى أبا اسحاق الصابي^(١) في سجمه ، وفي رقة أسلوبه ، واحتذى ابن المقفع في تسديد انشائه وموازنة معانيه ومبانيه ، وتابع أبا بكر الخوارزمي^(٢) في وثاقة ديباجته وأناقة لغته ، ولاحق بديع الزمان^(٣) في سلامة نثره وسحر بلاغته ، وترسم خطى ابن خلدون في إصابة فكرته ، وحكمة نظرتة ، وجلالة تقريره .

هذه الروح وذلك الهدي ، عانى شكيب ارسلان صناعة الكلمة ، فالان عصيها وأدنى قصيها ، وعانى صناعة القريض فأخضع متون مجوره ،

(١) ابو اسحاق الصابي هو ابراهيم بن هلال بن ابراهيم بن زهرون الحراني ، تابعة كتاب جيله تقلد ديوان الرسائل والمظالم أيام المطيع لله العباسي ، وتقلد ديوان رسائل معز الدولة الديلمي ، فكان ما يصدره عنه من المكاتبات لمضد الدولة سبباً في حقد هذا الأخير عليه . وحينما ملك عضد الدولة قبض عليه سنة ٣٦٧ هـ وسجنه . كان صلباً في دين الصابئة ، وكان يحفظ القرآن ويشارك المسلمين صوم رمضان . وله ديوان شعر وكتاب « التاجي » في أخبار بني بويه ولد سنة ٣١٣ هـ وتوفي سنة ٣٨٤ هجرية .

(٢) ابو بكر الخوارزمي هو محمد بن العباس من خوارزم ، من أئمة الكتاب واحد الشعراء العلماء ، كان ثقة في اللغة ومعرفة الأنساب ، صاحب الرسائل المعروفة استوطن نيسابور واتصل بالصاحب بن عباد . كانت بينه وبين بديع الزمان محاورات ممتعة أوردتها أمهات كتب الأدب وهو ابن اخت محمد بن جرير الطبري المعروف . ولد سنة ٣٢٣ هـ وتوفي سنة ٣٨٣ هجرية في نيسابور .

(٣) بديع الزمان هو أحمد بن الحسين بن يحيى الهمداني . أحد أئمة الكتاب له المقامات المشهورة التي احتذاها الحريري في مقاماته ، وكان شاعراً ذاعت شهرته بعد ان دارت بينه وبين أبي بكر الخوارزمي المحاورات والمساجلات المشهورة ، لذلك فقد خلا له الجو بعد وفاة الخوارزمي وتقلب في بلاد خراسان وسجستان وقال الجوائز . من عجائب ما يروى عنه ان اكثر مقاماته ارتجال وانه ربما يكتب الكتاب مبتدئاً من آخر سطوره الى السطر الاول فيه فيخرجه ولا عيب له ، ولد سنة ٣٥٨ هـ وتوفي مسموماً سنة ٣٩٨ هجرية .

وقصرف في فنون القول تصرف الحاذق الخبير ، فملاً الدنيا وشغل الناس قرابة نصف قرن .

وكان أمير البيان في صولاته الفكرية وجولاته السياسية من الأوائل الذين حركوا فترة الجمود الفكري والسياسي في الأمة الاسلامية ، وأثار ، لذلك حوله طائفة من أصحاب الأقلام والحكام ، فكان منهم المشيد والحمد ، وكان منهم الناصح والناقد ، وكان منهم المتجني والحاسد . غير ان ذلك لم يفت في عضده ولم يحل بينه وبين المضي في السبيل التي ارتضاها وأخذ نفسه على احتمال مشاقها ، فقد كان رحمه الله صاحب رسالة قبل أن يكون حامل قلم ، وجندي عقيدة قبل أن يكون « محترف أدب » وامل أول ما يبدو لقارئه ، ومتبوع رسائله وتحقيقاته ومؤلفاته ، انه يستقطر لواعج نفسه حين يكتب ، ويصوغ عواطف قلبه حين ينشئ ، وامل الحقيقة الأولى الكامنة وراء انتاجه الفكري ان الرجل يمتلكه احساس ظاهر بأنه مسؤول عن تراث العربية ومطالب بحراسة موارث الاسلام ، ومنتدب للذب عن قضايا العرب ، ومكلف بالعناية بشؤون المسلمين ، ومن الطبيعي ، ان من تملكه هذا الاحساس وأوتي ما أوتي أمير البيان من عرافة المحتد ، وفصاحة اللسان ، وعمق المعرفة لا يمكنه إلا ان يكون شكيب ارسلان في سيرته وصريرته ، وفي سجاياه ومزاياه ، وفي اخلاصه وعزيمته .

أميرته :

أمير البيان ، فرع شجرة باسقة ، (آل ارسلان) زينت التاريخ العربي والاسلامي بحكام وأمرء ومجاهدين وقادة وعلماء ، وهي من أعرق بيوتات الامارة في العرب وأعتقها نجاراً وأزكاها مغرساً ، وفيها يستقر معدن من أكرم معادن الحسب الصميم والنسب الأصيل ولم يجانب الحقيقة من قال عن أمرائها : أمراء سيف وقلم وحملة عِلْمٍ وَعِلْمٍ .

مقطع رأسه :

ولد الأمير شكيب في الشويفات (١) ، مركز العائنة الارسلانية التي بناها الأمير مسعود الارسلاني منذ أكثر من ألف سنة ، وأبوه حمود بن حسن . الذي يرقى نسبه الى الأمير ارسلان المتوفي سنة ١٧١ هجرية ، اما والدته فسيدة شركية جليظة .

نشأته :

ولد الأمير شكيب في بيت الأسرة بالشويفات - حارة الامراء يوم الاثنين اول ليلة من رمضان المبارك سنة ١٢٨٦ هـ الموافق للخامس والعشرين من كانون الاول سنة ١٨٦٩ م . وتعلم مبادئ القراءة والكتابة مع أخيه نسيب على يد معلم القرية حسبما كانت عليه عادة السراة في ذلك الحين ، ثم انتقل الى التعلم على يد استاذ آخر فحفظ جانباً من القرآن الكريم ودخل مع أخيه مدرسة الامريكان في الشويفات فسال قسطاً من العلوم واللغة الإنكليزية ، وفي سنة ١٨٧٩ حيناً بلغ العاشرة من عمره دخل مدرسة الحكمة في بيروت و تلقى فيها دروس العربية على الشيخ عبدالله البستاني وفيها تعلم للفرنسية والتركية ، وظهرت تباشير شاعريته وهو في الرابعة عشرة من عمره ، وكان في سني دراسته مبرزاً مع أخيه على اقرانها .

وبدأت رحلاته الاكتسابية في سنة ١٨٨٩ حيناً ذهب الى مصر ، وشرع يجالس المشاهير ، ويتعرف عليهم ويتعرفون عليه عن كثب امثال : الشيخ محمد عبده ، وسعد زغلول ، والشيخ علي الليثي ، والشيخ علي يوسف (صاحب المؤيد) وحفني تاصيل والسيد احمد محمود ، واحد زكي باشا ، وطلق رحمه الله وهو في سن الشباب ينشئ علاقات شخصية وأدبية مع اعلام عصره امثال الشاعر اسماعيل باشا صبري ، والشيخ علي يوسف ، وامير

(١) بلدة في لبنان تقع بين مدينتي بيروت وصيدا .

الشعراء احمد شوقي ، والبارودي ، وعبدالله باشا فكري ، فسامر بعضهم
وراسل البعض الآخر ، وامتحاح او كاتب بعضهم الثالث .

وقلبيت به السنون شاعراً وثأراً ومنصلاً اجتماعياً ، وبجائة لغوياً ،
ورائد فكرة سياسية ، ومهاجراً ، ومترجماً ، ومحققاً ، وسائناً وهو في
جميع ذلك انسان عين للمروية ، ولسان الأمة الاسلامية وأمير البيان العربي
في القرن العشرين .

وفي ليلة الاثنين ١٥ محرم سنة ١٣٦٦ هجرية - ٩ كانون الأول سنة ١٩٤٦ م
لقبي الامير شكيب وجه ربه بعد ان اصاب بموض تصلب الشرايين ، وأفل
النجم الذي اضاه ذميا العرب ، وصحت اللسان الذي تافح عن قضايا الاسلام .

امير البيان :

جمع شكيب ارسلان الامارتين ، اماراة النسب وامارة البيان ، ولئن
كانت الامارة الاولى لا تضارع في الاصالاة ، فان الثانية لا تقل عنها مكانة
ولا شيوعاً ، إذ أنه رحمه الله ، عرف بهذا اللقب ، الذي اطلقته عليه الأمة
وارتضاه له للعلماء والادباء والطبقة العليا من المفكرين ، وكان الاختيار
موافقاً لسابقة الامير ومعبراً عما يستحقه من الثناء والتقدير ، وطابقت فيه
« التسمية المسمى » ورافق الحُبْر الحُبْر باجماع الادباء .

وأول من أطلق عليه لقب « أمير البيان » السيد رشيد رضا (صاحب
المنار) رحمه الله ، وهو رفيق جهاده ، واخوه الخير بعلمه وفضله .

ولئن كان « موضوع التسمية هذه » محل جدل بين الباحثين ، ولئن
صدرت بعض الآراء الشاذة عن جدارة الامير بها وحقه بميائزتها فاننا نرى

أن السنة الخلق اقلام الحق ، وأن نور الشمس لا تحجبه الأكف الصغيرة ،
ولا تطفئه الافواه العاجزة وأن الله متم نوره ولو كره المشركون .

وسواء أكان مطلق اللقب الأول السيد رشيد رضا أم سواه ، فإنه مما
لا شك فيه أن جمهور الادباء وأرباب القلم في الأمة العربية جهرروا بهذا اللقب
وقابلوا به الامير والأمة والسنين الطوال ، وثبت من اجماعهم اثناء حياة
الامير ، ومن حصيلة ما ترك الامير من تراث ، بعد وفاته ، ان اللقب صادف
اهله ، والتقدير لاقى محله .

نضاله وأهدافه :

عاش الامير شكيب حياة حافلة ، أشبه ما تكون بحياة المناضلين
الاولئ أصحاب العقيدة والقلم ، وفتح عينيه على النور فرأى دولة الاسلام
(الدولة العثمانية حينذاك) صائرة الى الافول ، تحيط بها الدول الكبرى من
كل جانب وتقتنص اطرافها ، وتنحلب اشداقها شوقاً لابتلاع ولاياتها ،
ولا تتورع عن الايقاع بينها وبين شعوبها ، والامير مسلم غيور صافي
العقيدة ، مشبوب العاطفة ، ينتضي قلمه كل حين ويدافع عن دولة الاسلام
ما وسعته الحيلة ، فنراه حينما تطور الخلاف بين ملك السعودية وإمام اليمن
حول منطقة عسير يسارع الى رأب الصدع ولمّ الشمل ويقود حملة التوفيق ،
لكي يفوت فرصة التدخل واللعب على (الاصابع الاجنبية) ، ونراه حينما
اعتدت ايطاليا على ليبيا بطرابلس الغرب ، يشعر ان الوقت وقت سنان
لا لسان ، فيتطوع ويذهب بنفسه للالتحاق بالمجاهدين في ليبيا .

غير ان طب الامير في معالجة دولة الاسلام وسلاحة في الذود عن حياضها
لم ينمعا عنها خطر الانحلال والخسران . وانتهت الحرب العالمية الاولى على غير
ما يشتهي ويروم ، فلم يفقد أعصابه ، ولم يضع صوابه وبادر الى تغيير

الاستراتيجية السياسية ، والتفت نحو الأمة العربية وأولى قضاياها اهتمامه ، وقدم لهذه القضايا أثنى ما يقدمه انسان : نفسه وفكره وماله وقلمه ، ورأى بثاقب نظرته وصادق فطرته ، ان الإبقاء على البلاد العربية إبقاء على عمود الإسلام ، فأطلق أول دعوة للوحدة العربية وأول فكرة لتأليف الجامعة العربية . وقال له الملك فيصل الأول : أشهد أنك أول عربي تكلم معي عن الوحدة العربية ، ويروي الدكتور رثيف ابو اللح ان الامير قال له بعد قليل من انتهاء الحرب العالمية الأولى (العرب أمة كاملة ، أي أن لها جميع العناصر التي يقتضيها كيان الأمم من الوجهة السياسية والاجتماعية ، فلها عرق واحد ولسان واحد وأكثرية دين واحد وتاريخ واحد ، كما أن لها مصالح واحدة ومنافع واحدة وآمالاً واحدة . ولكن الذي فت في عضد هذه الأمة وأضعفها وأفقرها وأقصاها عن السير في موكب المدنية والرقى هو تفكك حلقاتها ، واستعمار الاجنبي لها ، فأنا جندي من جنودها له ثلاثة أهداف جلية واضحة تمام الوضوح ، الأول : هو الاتحاد ، والثاني : هو التحرر ، والثالث : هو السير في موكب النهضة والعلم والبحث) .

وانطلق الأمير في نضاله الذي لا يكل ولا يمل مستهدفاً أغراضه الثلاثة ، يحدوه بالفعل شعور الجندي ، الجندي المغامر الحكيم ، الذي لا يعبأ بتشريد ولا يبلين لتهديد ، ولا يهتم للمال ولا لراحة البال . فسافر الى برلين وامتلك بها بيتاً ، وراح ينتقل في أوروبا من قطار الى قطار ، لا يلقي عصا التسفار إلا ليحملها ، ولا ينفذ غبار معركة إلا ليخوض أخرى ، ولا يترك القلم لحظة إلا ليشعره من جديد .

وانتقل من برلين الى جنيف وشغل فيها مركز أمين عام للمؤتمر السوري الفلسطيني سنة ١٩٢١ وطالب باسم المؤتمر باستقلال سوريا ولبنان وفلسطين والاعتراف بحقها في الاتحاد وعلان إلقاء الانتداب فوراً . واختارته اللجنة التنفيذية للمؤتمر السوري الفلسطيني ليكون عضواً في الوفد العربي الذي يدافع

عن قضايا العرب أمام جمعية الأمم ، فحمل الأمانة ، وأدى الرسالة ثم سافر الى امريكا الشمالية وقصد الاتحاد السوفياتي تلبية لدعوة رسمية وأدى فريضة الحج ، ورحل الى الأندلس (اسبانيا) وأصدر مجلة باللغة الفرنسية في جنيف اسمها « الأمة العربية » ليسجل فيها جهود العرب ومحاولاتهم للتحرر والاستقلال وليحرض قومه على الكفاح والنضال ، وقابل مع صديقه احسان الجابري موسوليني ، وباحثه في موضوع القضية الطرابلسية ، وتوصلت محادثاتها الى نتائج إيجابية هامة وأنكب على كتابة البحوث السياسية وتنظيم المذكرات والاحتجاجات وإذاعة النداءات ، وتوزيع كل ذلك على وفود جمعية الأمم ورجالها ثم خطر له سنة ١٩٣٦ أن يجمع ما كتبه في تلك الميادين فوجد أنه يقع فيما يقارب العشرين مجلداً وأنه يتعذر عليه طبعه فأهداه جميعاً الى نظارة الخارجية السورية .

وفي سنة ١٩٣٦ أرادت الحكومة السورية أن تعبر عن تقديرها لمكانة شكيب ، ونضاله في سبيل وطنه وامته فاخترته رئيساً للمجمع العلمي العربي ، ولقد كان هذا الاختيار يصادف هوى في نفس الامير ورغبة في صدره لأنه كان يعتز بعضوية المجمع لولا ان الظروف السياسية اقتضت اعتذاره عن قبول الرئاسة احتجاجاً على فرنسا التي تنكرت للمعاهدة المعقودة مع سوريا سنة ١٩٣٦ ورفض القيد المعنوي واختار الحرية والنضال من أجل البلاد .

عودته الى الوطن ووصيته الأخيرة :

عاد شكيب الى وطنه ، ورأى بيروت بعد الهجرة الطويلة في الثلاثين من تشرين الأول سنة ١٩٤٦ ، وسعد بمشاهدة وطنه حراً مستقلاً طليقاً من اغلال الاحتلال والاستبداد ، وتحرك لبنان والبلاد العربية للقاء البطل بعد عودته الى العرين ، ومكث فترة يزور ويزار ويجهد نفسه بالرد على الرسائل التي كانت ترد بكثرة . وتحالف على الرجل تصلب الشرايين والنقرس والرمل في الكليتين

وذقل الثمانين عاماً ، فلم تطل مقاومته وعجزت يد البشر وأقبلت يد القدر
في ٩ كانون اول سنة ١٩٤٦ .

وكان آخر ما قاله للاستاذ عبدالله المشنوق ، حينما التقى به قبل موته
بأيام : أحمد الله عز وجل الذي سهل لي ان أفارق الحياة على أرض هذا
الوطن الذي أحببته ، وانا سعيد ان ادفن في تربة طاهرة لا تفرغ فوقها
راية اجنبية ، وانا سعيد ان ألقى وجه ربي الكريم ، فأعيد هذه الامانة الى
بارئها بعد أن تحققت احلام طفولتي في هذه الجامعة العربية حرسها الله .
وسأخبر رفاقي في الجهاد بأن تضحياتهم لم تكن عبثاً .

ونحدرت من عيني الأمير دمعتان ، ونهض واقفاً وجذب يد الاستاذ
المشنوق وقال له : لي وصية واحدة أود ان أوصي بها ، فهل تعدني بأن
تنقلها الى العالم العربي بعد وفاي ؟

فأجابته : لك العمر الطويل ان شاء الله .

فقال شكيب : لا بل تعدني بنقل الوصية .

قال : نعم .

وهنا طوقه شكيب بذراعيه المرتجتين وقال بصوت كادت تخنقه
العبارات : أوصيك بفلسطين .

لماذا تأخر المسلمون :

قصة الرسالة : عرف العالم الاسلامي « شكيب ارسلان » أميراً للبيان
ولساناً ينقل بصفاء ودقة كلمة الاسلام ، وجندياً على اجل العربية والعروبة ،
وذلك من خلال مقالاته ومؤلفاته ومساجلاته وترجماته وتحقيقاته ، واشربت
اليه الاعناق في كل معضلة ، وافتقده المصلحون الاجتماعيون ، والزعماء

السياسيون أمام كل مشكلة . وفي شهر ربيع الآخر سنة ١٣٤٨ هـ - ١٩٢٩ م ارسل الشيخ محمد بسيوني عمران من « جاوة » الى صاحب مجلة المنار السيد رشيد رضا رسالة يوفي فيها الأمير شكيب حقه من الثناء والتقدير على خدمته للإسلام والمسلمين ويقترح عليه ان يبين لقراء المنار اسباب ما صار اليه المسلمون من الضعف والانحطاط والذل ، وان يبين اسباب رقي اهل اوربا وامريكا واليابان ، وما إذا كان يمكن للمسلمين مجاراة هؤلاء في سباق الحضارة مع المحافظة على دينهم الحنيف ، فأحال السيد رشيد رضا ، الرسالة الى الأمير ويظهر ان الرسالة حركت في نفس الأمير كوامن واثارت شؤوناً وشجوناً وأن السؤال كان يلح في خاطره والاجابة كانت مضمرة في تلافيف ذهنه الوقاد والمنشغل ابدأ بالشؤون الاسلامية .

ثلاثة أيام :

ولم يكد ينتهي من رحلته الى الاندلس ، حتى انكب على اعداء الجواب خلال ثلاثة أيام وانفعالات الزيارة الى بلاد المجد المفقود وعواطفها ما زالت مشبوبة في نفسه ، ونشر الكتاب اول ما نشر في مجلة المنار ثم طبعه في كتيب على حدة وقدم له السيد رشيد رضا في أواخر سنة ١٩٤٠ بمطبعة المنار وحلّاه ببعض العناوين ، وأعيد طبع الكتاب مرات ، وتناقله العالم الاسلامي بلهفة وشوق وتقدير ، لأنه وجد فيه اجابات صريحة واضحة على تساؤلات كانت تلح في الضائير وتمتلج في الخواطر . ويقول السيد رشيد رضا عن الكتيب الرسالة :

سارت بها الركبان تطوي نفنفاً فنفنفاً وسبباً فسبباً

أثر الرسالة :

لا شك ان الرسالة طارت في أرجاء العالم الاسلامي يجناحي التوفيق

والبراعة ، وكانت عود الثقب الصغير ، الذي أضاع الطريق المظلم : وحدد المعالم المبهمة وحق للسيد رشيد رضا ان يقول عنها انها (اضطربت بها بعض دول الاستعمار ، وزلزلت زلزلاً شديداً ، حتى قيل لنا إنها أغرت حكومة سوريا بمنع نشرها فيها وهي أحق وأهلها فانفردت بهذه العداوة للإسلام دون من أغروها بها) وقابلت فرنسا الرسالة بحفاوة فمنعت دخولها الى الجزائر ، وحظرت على الناس قراءتها كأنما هي وباء ، وجعلت عقوبة لمن يطلعها .

أما العالم الإسلامي ورجاله ، فقد رحبوا بها ، وافتوا الأنظار اليها وحضوا على نشرها وتعميمها ، واقترح الاستاذ محمد تقي الدين الهلالي في كلية ندوة العلماء بالهند تعميم نشر الكتاب مصححاً مضبوطاً مشكولاً ، ليستوفي في مطالعته الخاصة والعامة وان يسهم الاغنياء في توزيع نسخه ، وان يدرسه المدرسون للطلبة وان يخطب به الخطباء مدة طويلة وان يترجم الى اللغات الأخرى .

الرسالة في الميزان :

إن ظروف إنشاء الرسالة ، وكونها جواباً على سؤال طرح في مجلة المنار وتحريرها في مدة وجيزة جداً - ان صح القول بأنه ثلاثة أيام - واعتقاد الأمير فيها على الذاكرة وخلاصة التجارب دون المذاكرة والمراجع دفعت بعض المفكرين الى انتقاد جرمها الصغير والإكثار فيها من وجوه المقارنات بين المسلمين بالأمس واليوم ، وصياغتها بالأسلوب الصحافي والخطابي العاجل ، حتى ان الاستاذ احمد الشرباصي يقول عنها - وقوله حق وصدق - : « انها أشبه بخطبة طويلة النفس فيها من الاثارة والتحميس اكثر مما فيها من البحث والاقناع » .

ومها قيل في الرسالة فقد كانت بذت ساعتها ، وضرورة من ضرورات عصرها ، أيقظت الأمة ، وأزالت الحجب عن أعينها وحركت العزائم نحو

الإصلاح ودلت بصدق على كثير من مواطن الضعف والانحلال . ولا يقبل انتقادها بكثرة الآيات القرآنية التي اشتملت عليها لأن القرآن دستور المسلمين والمصدر الأول من مصادر التشريع لديهم واللجوء الى آياته وتبنيان تحذيراته ووصاياه في موضوع معالجة أسباب تأخر المسلمين من اللوازم الأساسية والضرورات المنطقية لنجاح الموضوع .

كتبه ومنشوراته حسب تسلسلها الزمني :

١ - باكورة : مجموعة قصائد شعرية طبعت بالمطبعة الادبية في بيروت سنة ١٨٨٧ م .

٢ - الدرة اليتيمة : حكم لمبدالله بن المقفع طبعت مصححة بقلم الأمير في المطبعة الادبية في بيروت سنة ١٨٩٣ م .

٣ - رواية آخر بني سراج - تأليف شاتوبريان . عربيه أمير البيان وألحق به ثلاثة أجزاء :

أ - خلاصة تاريخ الأندلس الى سقوط غرناطة - بقلمه .

ب - أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر . نشره أمير البيان لمؤلف مجهول شهد وقائع سقوط الأندلس بنفسه .

ج - أثاره تاريخية رسمية - أربعة كتب سلطانية اندلسية صادرة من أبي الحسن علي بن أبي النصر بن أبي الأحمر والد أبي عبدالله آخر ملوك غرناطة . طبع بمطبعة الاهرام سنة ١٨٩٧ .

٤ - اعمال الوفد السوري الفلسطيني: يضم البيانات والمذكرات والمطالب التي قدمها أمير البيان وشاركه في وضعها احسان الجابري وميشال لطف الله وسليمان كنعان . طبع بالمطبعة السلفية - بكانون الثاني سنة ١٩٢٣ م .

٥ - حاضر العالم الاسلامي - تأليف الكاتب الاميركي لوتروب ستودارد ترجمه الى العربية الاستاذ عجاج نويهض وقدم له الحواشي أمير البيان فجاءت تعليقاته وحواشيه أربعة أضعاف الكتاب الأصلي واشتهر الذيل والحاشية حتى اصبح الاصل يعوف بها لدى قراء العربية . طبعته المطبعة السلفية سنة ١٩٢٥ م .

٦ - اتاتول فرانس في مبادله - تأليف جان بروسون . ترجمه وقدم له وعلق عليه أمير البيان وطبع بالمطبعة المصرية سنة ١٩٢٦ م .

٧ - لماذا تأخر المسلمون - ولماذا تقدم غيرهم . طبع في مطبعة المنار سنة ١٩٣٠ م .

٨ - الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج الى اقدس مطاف . كتاب تحدث فيه أمير البيان عن رحلته لاداء فريضة الحج . طبع في مطبعة المنار سنة ١٩٣١ .

٩ - محاسن المساعي في مناقب الامام أبي عمرو الاوزاعي . نشره أمير البيان وقدم له وعلق عليه دون ان يذكر اسم مؤلفه . وهو من تأليف الشهاب أبي العباس احمد بن محمد بن أبي بكر الشهير بابن زيد الموصلني الحنبلي المتوفي بدمشق سنة ٨٧٠ هجرية . طبع في مطبعة عيسى البابي الحلبي سنة ١٩٢٣ م .

١٠ - تاريخ غزوات العرب - في فرنسا وسويسرا وايطاليا وجزائر البحر المتوسط . وهو أول تأليف بالعربية في معناه وموضوعه . طبع في مطبعة عيسى البابي الحلبي وتاريخ مقدمته ربيع الاول سنة ١٣٥٢ .

١١ - روض الشقيق في الجزل الرقيق . وهو ديوان شقيق أمير البيان الأمير نسيب ارسلان جمعه وعلق عليه وصدوره بترجمة للشاعر وذيله بنسب العائلة الارسلانية . طبع في مطبعة ابن زيدون بدمشق سنة ١٩٣٥ م .

١٢ - ديوان الامير شكيب ارسلان . طبع بمطبعة المنار سنة ١٩٣٦ م ،
وقدم له خليل مطران .

١٣ - شوقي أو صداقة أربعين سنة ذكريات الأمير عن شوقي أمير
الشعراء . طبع بمطبعة عيسى البابي الحلبي سنة ١٩٣٦ م .

١٤ - الحلل السندسية في الأخبار والآثار الاندلسية . دراسة اندلسية تتناول
الجغرافية والتاريخ والتراجم والعلوم والفنون والآداب . صدر منه ثلاثة
اجزاء وطبع أول جزء منه بمطبعة الحلبي سنة ١٩٣٦ م والثاني سنة ١٩٣٩ م
والثالث سنة ١٩٤٧ م . وهو في الأصل مرسوم على ثمانية أجزاء ، ولم يعرف
بعد ما إذا كانت تتمته ما زالت موجودة أم انها فقدت .

١٥ - السيد رشيد رضا (أو اخاء أربعين سنة) . طبع بمطبعة ابن
زيدون بدمشق سنة ١٩٣٧ م .

١٦ - النهضة العربية في العصر الحاضر . طبع في مطبعة دار النشر سنة
١٩٣٧ م . وهو كتيب أصله محاضرة القيت في دار المجمع العلمي العربي .

١٧ - عروة الاتحاد بين أهل الجهاد . مجموعة مقالات نشرت في صحف
مختلفة ، جمعها ادارة جريدة العالم العربي التي كانت تصدر في بونس ايرس .
قدم له الدكتور تقي الدين الهلالي . وصدر منه الجزء الأول سنة ١٩٤١ م .

١٨ - « رسائل الصابي » لأبي اسحاق الصابي ، نشرها أمير البيان ،
وعلق عليها حواشي نافعة .



ولأمير البيان منشورات أخرى صغيرة ، (بيان للأمة العربية)
و (لائحتي الى المسيو جوفنيل) وهي في الرد على الافتراءات التي وجهها

اليه بعض زملائه في النضال السياسي . و (الوحدة العربية) وهو رسالة صغيرة و (رسالة البلاشفة) و (رسالة رحلة المانية) و (رسالة عن ضرب الفرنسيين لدمشق) بالإضافة الى عشرات الآلاف من المذكرات والرسائل والمقالات والمدونات السياسية التي يطول المقام بذكرها وحبذا لو ان الدولة اللبنانية عمدت الى تكليف لجنة خاصة من الادباء والناشرين وبعض آل ارسلان لمتابعة انتاج أمير البيان في تركته التي تملأ عشرات الصناديق المهمة ، وتنسيق هذا الانتاج واخراجه الى العالم العربي وفاء لذكرى الرجل العظيم ، وتقديراً لأدبه وخدمة للثقافة العربية وللبنان الذي ينتمي اليه أمير البيان .

أقوال الأعلام في أمير البيان :

● لو تفرغت طائفة من حملة الاقلام جم عديدها ، فيأضة قرائنها ، فيما يشاء الله من مسائل السياسة والاجتماع والأدب ، ومباحث التاريخ والاخلاق ، لكتابة ما كتب من تلك الفصول والمقالات لتعذر عليها أن تأتي مجتمعة بما أتى به ذلك المعلم المفرد .

● وإذا كان قد رضي لنفسه في الشعر ان يكون المقل المجيد ، فلا مشاحة في انه انفرده بين المترسلين بأنه المكثر المجيد .

خليل مطران

● .. اميري الذي أقام أهل الادب والبيان عرشاً لا تدانيه عروش ذوي التاج والصولجان ، وما ذلك إلا لأنه اصبح نصير العربية وخادم الاسلام .

أحمد زكي باشا

● أحسن تلاميذي وأقربهم إليّ الأمير شكيب ارسلان .

الشيخ عبدالله البشقاني

● شكيب ارسلان أعظم شخصية عربية . كان لسان الاسلام ومدرة العرب. واحسب ان مقالاته لو جمعت لجاها منها كتاب في ضعف حجم الاغاني.

الشيخ علي الطنطاوي

● ملأ ذكره العالم الاسلامي وملأت كتاباته الصحف العربية في المشرق والمغرب وعرف ببلاغة الأسلوب واشراق الديباجة حتى سمي بحق أمير البيان.

الاستاذ على الغاياتي

● أمير البيان ، ومدرة بني معد وعدنان وسائر بني قحطان .

السيد رشيد رضا

● حجة الأدب وسيد كتاب العصر .

مصطفى صادق الرافعي

● (اقرأه فأشعر أني في حضرة جبار من جبابرة البلاغة ، تتقاذف أنامله الطود. كما تتداول الحصاة، ويمج قلعه الانداء حيناً والامواج حيناً ، وتتسارع المعاني من قريحته، والمباني من موسوعته، متزاحمة على سنى يراعه، منقادة اليه، لا يكاد فيها ذهنًا، ولا يستحضر لفظًا، ولا يعمل مهذارًا ، ولا يخشى عشارًا ، فهو يرسل الكلام على سجيته ارسالاً عجيباً ، وقد لبسته افكاره لا قصيراً ولا فضفاضاً بل منفصلاً أحسن تفصيل وأكمل ، مع انه لا يعاني في ذلك قياساً ولا مراجعة يأتيك بالصفحة ، تترقرق فيها الألفاظ كالغدير الصافي ، فتخاله يخاطبك بلغة عامية ، هي من الفصيح البارع الفصاحة ، فلا تكاد تفرغ منها حتى يسبح بصرك في ظلال ممدودة يسمو منها الى سفح أو قمة أو خيلة هي قطعة موارة بالجل البليغة ، أو فقرة كأداء بالمفردات المعويصة

او شواهد شعرية زاهية بالحكم ، زاهرة بالامثال ، وهو في كل ذلك لا يرمي إلى إراحتك أو إلى اعنائتك ، بل يضع الكلمة في موضعها ، مخلوقة لمحلها ، ومخلوق محلها لها ، كما تنجذب الأشياء بطبيعتها إلى شكولها ، وتنازم الكهارب مراكزها من نواتها .

رشيد سليم الخوري



٢ - صاحب المنار : الامام السيد محمد رشيد رضا

ولادته ونشأته :

ولد الإمام السيد محمد رشيد رضا في ٢٧ جمادى الأولى سنة ١٢٨٢ في قرية « القلمون » اللبنانية ، الواقعة جنوبي طرابلس الشام .

ونشأ في بيت معروف ومشار اليه بالعلم والرياسة والارشاد ، فقد بنى جده الثالث مسجد القلمون ، وأنعم عليه السلطان العثماني في حينه ببراءات الامامة والخطابة في المسجد ، وتسلسلت هذه البراءات حتى آلت الى الشيخ رحمه الله .

وأشار رحمه الله في كتابه « المنار والازهر » الى مكانة إسرته فقال : « وعهدي بأكبر علماء طرابلس وحكامها ووجهاتها يفتشون دارنا في ايام الصيف ، ويقيمون فيها أياماً » .

مدرسته ودراسته :

تلقى علومه الاولى في كُتّاب قرينته « القلمون » وكانت هذه العلوم : قراءة القرآن والخط والحساب . ثم انه دخل « المدرسة الرشدية » في طرابلس وتلقى فيها مبادئ الصرف والنحو والحساب والجغرافيا وعلم الحال - العقائد

والعبادات - واللغة التركية . ثم التحق بالمدرسة الوطنية الاسلامية ودرس العلوم العربية والشريعة والمنطق والرياضيات والفلسفة الطبيعية على استاذه العلامة الشيخ حسين الجسر الازهري ، الذي أسس المدرسة وحدد لها برنامجها التجديدي .

وقال عن نفسه : « كنت شديد العناية بمطالعة كتب الأدب وكتب التصوف ، وكان اعجب كتب التصوف إليّ « احياء علوم الدين » فكنت أكثر من مراجعته وكان له أكبر التأثير في ديني واخلاقي وعلمي وعملي ، وقال : « ونظمت الشعر قبل قراءة العلوم العربية ، وكدت اشتهر به » .

ومن مشايخه - فضلاً عن الشيخ حسين الجسر - :

- العلامة الشيخ محمود نشابة ، أخذ عنه الحديث وفقه الشافعية .
- العلامة الشيخ عبد الغني الرافعي ، أخذ عنه علوم الحديث واستفاد منه في الأدب والتصوف .
- العلامة المحدث العابد الشيخ ابو المحاسن محمد القاوقجي الكبير ، أخذ عنه كتابه في « الاحاديث المسلسلة » . وبعض كتابه « المعجم الوجيز » .
- وزامل من الاقران الاستاذ محمد الحسيني ، والشيخ محمد كامل ابن الشيخ عبد الغني الرافعي ، والعلامة الناسك الزاهد الشيخ عبد الباقي الافغاني ، من اكبر علماء بلده في المعقولات والفلسفة . والاستاذ الشيخ عبد الحميد المغربي ، والاستاذ الشيخ محمد رحيم ، والشيخ صالح الرافعي ، والعلامة الفقيه الشاعر الشيخ اسماعيل الحافظ ، والسيد عبد الحميد الزهراوي .

سفره الى مصر :

وفي أوائل رجب سنة ١٣١٥ ، سافر إلى مصر ، وعزم على إنشاء صحيفة إسلامية فيها، واعتذر من السيد عبد القادر القباني ، صاحب جريدة

« ثمرات الفنون » ، ولم يقبل قولي رئاسة تلك الجريدة ، لعدم توفر مناخ حر يساعده فيما عزم عليه من الحملة الإصلاحية . « وادرك بصدق فراسته وبعد نظره أن العصر الذي يستقبله إنما هو عصر إصلاح ، ودوره فيه دور إيقاظ ، وأن الاسلام في حاجة ملحاح إلى من يمثل فيه هذا الدور » .

اتصاله بالشيخ محمد عبده وأصداره « المنار » :

وفور وصوله الى مصر اتصل بالاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، وكان قد تعشقه ، وتمشق معه المنهج الاصلاحى الذي يتبعه هو والاستاذ السيد جمال الدين الافغانى ، وكان من القراء المدمنين على جريدتها « العروة الوثقى » منذ طلبه العلم في طرابلس الشام . كما أنه حظي باستقبال الشيخ محمد عبده ومجالسته لدى زيارته للبنان ، ومروره بطرابلس ، وتداول معه الرأي في منهاج الجريدة التي كان عازماً على إصدارها وفي اسمها ؛ وذكر له عدة اسماء ، ومنها المنار ، الوي وقع عليه الاختيار . ويقول رحمه الله : « وكتبت فاتحة العدد الاول بقلم الرصاص في جامع الاسماعيلى المجاور لدار الاستاذ بالناصرية ، وذهبت بها الى داره فمرضتها عليه فاعجبته جد الاعجاب » .

وجملة القول أنه ، والاستاذ الامام الشيخ محمد عبده ، كانا « كروح واحدة في جسدين » يتكاشفان ويتساران ، وينسقان كل مع الآخر أوجه النشاط والعمل والاصلاح والكتابة .

وكان الشيخ رشيد أول من أطلق على الشيخ محمد عبده لقب « الاستاذ الامام » .

ويقول الأمير شكيب ارسلان : « انه اتخذه إماماً وعاشره لزاماً وأنشأ مجلة المنار لبث أفكاره في الاصلاح الدينى والاجتماعى ، والإيقاظ العلمى والسياسى » .

وهكذا بلغت « المنار » في مدة وجيزة من نفوس المسلمين مبلغاً عظيماً ، وأثرت تأثيراً مباشراً في التوعية بشكل عام ، وفي بذر بذور النهضة الفكرية والسياسية بشكل خاص ، وصارت المجلة الاسلامية الأولى في العالم الاسلامي ، يحتج بها ويرجع اليها ، وأصبحت هي « موئل الفتيا في التأليف بين الشريعة والايوضاع المصرية الجديدة » .

وقاير الشيخ رشيد رضا على إصدار المنار من سنة ١٣١٥ إلى سنة ١٣٥٤ ، بدون كلل ولا ملل ، وأودع فيها خلاصة تجاربه وذوب فكره ، وفرائد علومه ، ولوامع فتاويه ، حتى ان المستشرقين عدّوا المنار « معلمة اسلامية منقطعة النظير ولا يستغني مسلم عنها » .

وفاته :

وفي الثالث والعشرين من جمادى الاولى ١٣٥٣ هـ الموافق للثاني والعشرين من آب سنة ١٩٣٥ م اسلم الامام السيد محمد رشيد رضا الروح وهو في السيارة عائداً من السويس الى مصر ، تفعمده الله بسابغ رحمته .

مؤلفاته :

كان رحمه الله ، من فحول علماء هذه الأمة ، ولقد صدر عن فكره وقلمه من الآثار المفيدة ما ينذر صدوره عن العلماء في هذا العصر المتأخر .

وهذا احصاء تأليفه ، كما أوردها الأمير شكيب ارسلان في كتابه عنه :

١ - تفسير القرآن الكريم ، الشهير « بتفسير المنار » وصل فيه إلى الآية الأولى بعد المائة من سورة يوسف ، من عجائب الاتفاق أن نصها : « رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث » .

٢ - « التفسير المختصر المفيد » . أراد له أن يكون كالمثلن لتفسير المنار طبع منه بعض الأجزاء .

- ٣ - مجلة المنار وفيها العديد من مقالاته وتحليلاته وتوجيهاته وأفكاره
الاصلاحية وروده على المراسلات وتعليقه على الأحداث ، وفتاويه القيمة^(١) .
- ٤ - تاريخ الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده . ثلاثة اجزاء .
- ٥ - نداء للجنس اللطيف (حقوق النساء في الاسلام) وقد ترجم إلى
بعض اللغات .
- ٦ - الوحي المحمدي ، وقد ترجم ايضاً .
- ٧ - المنار والازهر ، وفيه ترجم لنفسه .
- ٨ - ترجمة القرآن وما فيها من المفسد .
- ٩ - ذكرى المولد النبوي .
- ١٠ - مختصر ذكرى المولد .
- ١١ - الوحدة الاسلامية . وطبعت باسم « محاورات المصلح والمقلد » .
- ١٢ - يسر الاسلام وأصول التشريع العام .
- ١٣ - الخلافة ، أو الامامة العظمى .
- ١٤ - الوهابيون والحجاز .
- ١٥ - السنة والشيعة ، ظهر منه الجزء الاول .
- ١٦ - خطاب عام فيما يجب على المسلمين لبيت الله الحرام .
- ١٧ - مناسك الحج واحكامه وحكمه .
- ١٨ - المسلمون والقبض .

(١) جمعت فتاويه وطبعت في بيروت فبلغت سبع مجلدات .

- ١٩ - تفسير الفاتحة والكوثر والكافرون والاخلاص والمعزتين ، في مجموعة تشتمل على تفسير سورة العصر للاستاذ الامام الشيخ محمد عبده .
- ٢٠ - رسالة في الصلب والفداء .
- ٢١ - حقيقة الربا . طبع منها ست وتسعون صفحة فقط .
- ٢٢ - مساواة المرأة بالرجل ، وهي مناظرة مع الدكتور محمود عزمي في الجامعة المصرية .
- ٢٣ - رسالة في حجة الاسلام الغزالي .
- ٢٤ - المقصورة الرشيدية ، عارض فيها المقصورة الدريدية .
- ٢٥ - رسالة في التوحيد على طريقة السؤال والجواب .
- ٢٦ - الحكمة الشرعية في محاكمة « القادرية » و « الرفاعية » .
- رسالة ألفها اثناء طلب العلم رداً على السيد أبي الهدي الصيادي فيما تعرض به للشيخ عبد القادر الجيلاني .
- ولو لم يكن له من المؤلفات إلا تلك المجلدات الخمسة والثلاثين من المنار لكان ذلك كافياً ليكون نوراً يسعى بين يديه في الدنيا والآخرة .



المقدمة

على هذه الرسالة لتقيد الاسلام الاستاذ
الحجة السيد رشيد رضا قدس الله روحه

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ^(١) .
ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا
مَا بِأَنْفُسِهِمْ^(٢) .
إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ
يَقُومُ الْأَشْهَادُ^(٣) .

(١) سورة الرعد ١١ .

(٢) سورة الانفال ٥٣ .

(٣) سورة غافر ٥١ .

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا
وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ
الصَّادِقُونَ (١) .

كتب إليّ تلميذي المرشد الشيخ محمد بسيوني عمران إمام مهر اجا جزيرة
سمبس برنيو (جاوه) كتاباً يقترح فيه على أختينا المجاهد أمير البيان أن
يكتب للنار مقالاً بقلمه السيل في اسباب ضعف المسلمين في هذا العصر
وأسباب قوة الافرنج واليابان وعزتهم بالملك والسيادة والقوة والثروة . وقال
في كتاب آخر إنه قرأ ما كتبناه في المنار وتفسيره من بيان الأسباب في
الأميرين ، وما كتبه الأستاذ الامام في مقالات (الاسلام والنصرانية مع العلم
والمدينة) في الموضوع ، وإنما غرضه أن يكتب في ذلك أمير البيان بقلمه
المؤثر المعبر عن معارفه الواسعة ، وآرائه الناضجة ، لتجديد التأثير في أنفس
المسلمين بما يناسب حالهم الآن ، لتنبه غافلهم ، وتعلم جاهلهم وكبت
خاملهم ، وتنشيط عاملمهم . وبني الاقتراح على الأسئلة الآتية التي صارت
مثار شبهة على الدين عند غير علمائه ، فهو يعلم مما سمعه من دروسنا في مدرسة
الدعوة والارشاد وبما كتبناه مراراً في المنار والتفسير ان كتاب الله تعالى
حجة على ادعاء الإسلام والايان وليسوا هم حجة عليه .

اقترحت هذا الاقتراح لجل أخي ووليي الأمير شقيب على كتابة شيء
مثل هذا للنار ، وأنا الذي أنصح له دائماً بتخفيف أحمال الكتابة عن عاتقه
لكثرة ما يكتب لصحف الشرق والغرب والأصدقاء غيرهم ، فأرسلت اليه
كتاب الشيخ محمد بسيوني عقب وصوله إلي ، فأرجأ الجواب عنه لكثرة

(١) سورة الحجرات ١٥ .

الشواغل إلى أن عباد من رحلته الأخيرة إلى اسبانية وقد أثرت في نفسه
مشاهد حضارة قومنا العرب في الأندلس والمغرب الأقصى ، وشاهد تأثير
محاولة فرنسة تنصير شعب البربر في المغرب تمهيداً لتنصير عرب افريقية
المرزوثين باستعبادها لهم ، كما فعلت اسبانية في سلفهم في الأندلس - فكتب
الجواب منفعلاً بهذه المؤثرات ، فكان آية من آيات بلاغته ، وحجة من حجج
حكيمته ، لعلها أنفع ما تفجر من ينبوع غيرته ، وانبجس من معين خبرته ،
فسال من أنبوب براعته ، جزاه الله خير ما جزى المجاهدين الصادقين .

محمد رشيد رضا



كتاب الشيخ محمد بسيوني عمران

حضرة مولاي الاستاذ المصلح الكبير السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار
تفعمني الله والمسلمين بوجوده العزيز آمين .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته . أما بعد فان من قرأ ما كتبه في المنار
وفي الجرائد العربية العلامة السيامي الكبير أمير البيان ، الأمير شكيب
ارسلان ، من مقالاته الرنانة المختلفة المواضيع ، عرف انه من أكبر كتاب
المسلمين المدافعين عن الإسلام ، وانه أقوى ضلع للمنار وصاحبه في خدمة
الإسلام والمسلمين ، واني أرجو من الله تعالى أن يطيل بقاءهما الشريف في خير
وعافية - كما أرجو من مولاي الاستاذ صاحب المنار أن يطلب من هذا الأمير
الكتاب الكبير أن يتفضل علي بالجواب عن أسئلتني الآتية وهي :

(١) ما أسباب ما صار اليه المسلمون (ولا سيما نحن مسلمو جاوة وملايو)
من الضعف والانحطاط في الأمور الدنيوية والدينية معاً ، وصرنا أذلاء لا حول
لنا ولا قوة ، وقد قال الله تعالى في كتابه العزيز :

وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ (١) .

(١) المنافقون : من الآية ٨ .

فأين عزة المؤمنين الآن ؟ وهل يصح لمؤمن أن يدعي انه عزيز وإن كان
ذليلاً مهانئاً ليس عنده شيء من أسباب العزة إلا لأن الله تعالى قال :

وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ .

٢) ما الأسباب التي ارتقى بها الأوروبيون والامريكانيون واليابانيون
ارتقاء هائلاً ؟ وهل يمكن أن يصير المسلمون أمثالهم في هذا الارتقاء إذا
اتبعوا في أسبابه مع المحافظة على دينهم « الإسلام » أم لا ؟

هذا والمرجو من فضل الأمير أن يبسط الجواب في المنار عن هذه الاسئلة
وله وللستاذ صاحب المنار من الله الأجر الجزيل .

محمد بسيوني عمران

سنبس بورنيو الغربية في ٢١ ربيع الآخر سنة ١٣٤٨

* * *

هذا نص كتاب السائل ويتلوه جواب الأمير ، وقد وضعنا له بعض
العناوين ، لأنها كمحطات الطريق للسالكين وعلقنا عليه قليلاً من الحواشي
المفيدة للقارئ ، كما فعلنا ذلك في كتاب الاسلام والنصرانية لشيخنا الاستاذ
الامام رحمه الله .

* * *

ملاحظة : الحواشي التي من قلم العلامة السيد رشيد رضا رحمه الله عليها
التوقيع بحرف (ر) ، والحواشي المضافة الى هذه الطبعة من قلم المؤلف عليها
التوقيع بحرف (ش) .

جواب الامير شكيب ارسلان

إن الانحطاط والضعف اللذين عليهما المسلمون شيء عام لهم في المشرق والمغرب لم ينحصر في جاوة وملايو ، ولا في مكان آخر ، وإنما هو متفاوت في دركاته ، فمنه ما هو شديد العمق ، ومنه ما هو قريب الغور ، ومنه ما هو عظيم الخطر ، ومنه ما هو أقل خطراً .

وبالاجمال حالة المسلمين الحاضرة ولا سيما مسلمي القرن الرابع عشر للهجرة أو العشرين للمسيح ، لا ترضي أشد الناس تحمساً بالإسلام وفرحاً بحزبه ، فضلاً عن غير الأحمسي من أهله .

إن حالتهم الحاضرة لا ترضي لا من جهة الدين ولا من جهة الدنيا ، ولا من جهة المادة ولا من المعنى . وإنك لتجد المسلمين في البلاد التي يساكنهم فيها غيرهم متأخرين عن هؤلاء الاغيار لا يساكنهم في شيء إلا ما نزر ، ولم أعلم من المسلمين من ساكنهم أمم أخرى في هذا العصر ولم يكونوا متأخرين عنهم إلا بعض أقوام منهم ، وذلك كمسلمي بوسنه مثلاً فإنهم ليسوا في سوي مادي ولا ممنوي أدنى من سوي النصارى الكاثوليكين ، أو النصارى الارثوذكسيين الذين يحيطون بهم ، بل هم أعلا مستوى من

الفريقين^(١) . وكثير من مسلمي الروسية الذين ليس المسيحيون الذين يحاورونهم أرقى من الطوائف المسيحية التي تساكنهم ، ولا خلاف في أن مسلمي الصين إجمالاً على تأخرهم هم أرقى من الصينيين البوذيين ، هذا إذا كانت النسبة بين الفريقين باقية كما كانت قبل الحرب العامة ، وفيما عدا هذه الأماكن نجد تأخر المسلمين عن مسايرة جيرانهم عاماً مع تفاوت في دركات التأخر .

ويقال ان العرب في جزيرة سنغافورة هم أعظم ثروة من جميع الأجناس التي تساكنهم حتى من الانكليز أنفسهم بالنسبة إلى العدد ، ولا أعلم مبلغ هذا الخبر من الصحة ، ولكنه على فرض صحته ليس بشيء يقدم أو يؤخر في ميزانية المسلمين العامة .

ولا إنكار ان في العالم الإسلامي حركة شديدة ، ومخاضاً عظيماً شاملاً للأمور المادية والمعنوية ، وبقظة جديدة بالإعجاب ، قد انتبه لها الأوروبيون وقدروها قدرها ، ومنهم من هو متوجس خيفة مغبتها، لا يخفي هذا الخوف من تضاعيف كتاباتهم ، إلا أن هذه الحركة إلى الأمام لم تصل بالمسلمين حتى اليوم إلى درجة يساؤون بها أمة من الأمم الأوروبية أو الأميركية أو اليابان .

فبعد أن تقرر هذا وجب أن نبحث في الأسباب التي أوجدت هذا التمهق

(١) كانوا أعلى مستوى من الكاثوليكين والارثوذكسيين من الجهة المادية بسبب ان ٨٠ في المائة من أراضي بوسنة كانت ملكاً للمسلمين وكان الفلاحون فيها جميعاً من السربيين فمنذ بضع عشرة سنة سنت حكومة بلغراد قانوناً صدقه مجلس نوابها نزعته بموجب هذه الاملاك من أيدي مالكيها المسلمين وسلمتها إلى الفلاحين السربيين غير معوضة على المسلمين إلا ببديل نجس فأصبحوا لا يملكون في بوسنة إلا ٢٥ في المائة من الاراضي فسقطت أهميتهم المادية من ذلك الوقت . أما حالتهم الادبية فمعرضة الى اليوم لا يقال انها دنيا بالقياس الى جيرانهم (ش) .

في العالم الإسلامي بعد أن كان منذ ألف سنة هو الصدر المقدم ، وهو السيد المرهوب المطاع بين الأمم شرقاً وغرباً ، فقبل أن نبحت في أسباب الارتقاء فنقول :

أسباب ارتقاء المسلمين الماضي :

إن أسباب الارتقاء كانت عائدة في مجملها إلى الديانة الإسلامية التي كانت قد ظهرت جديداً في الجزيرة العربية فدان بها قبائل العرب ، وتحولوا بهدايتها من الفرقة إلى الوحدة ، ومن الجاهلية إلى المدنية ، ومن القسوة إلى الرحمة ، ومن عبادة الأصنام إلى عبادة الواحد الأحد ، وتبدلوا بأرواحهم الأولى أرواحاً جديدة ، صيرتهم إلى ما صاروا إليه من عز ومنعة ، ومجد وعرفان وثروة ، وفتحوا نصف كرة الأرض في نصف قرن ، ولولا الخلاف الذي عاد فذب بينهم منذ أواخر خلافة عثمان وفي خلافة علي رضي الله عنها لكانوا أكملوا فتح العالم ولم يقف في وجههم واقف .

على ان تلك الفتوحات التي فتحوها في نصف قرن أو ثلثي قرن برغم الحروب التي تسببت بها مشاققة معاوية لعلي والحروب التي وقعت بين بني أمية وابن الزبير قد أدهشت عقول العقلاء والمؤرخين والمفكرين ، وحيرت للفاتحين الكبار ، وأذهلت نابليون بوناپرت أعظمهم ، وله تصريح في ذلك نقله عنه « لاكاس » الذي رافقه إلى جزيرة « سانت هيلانة » وغيره من المقيدون لحوادث نابليون المتبهمين لأقواله فقد ثبت ثبوتاً قطعياً من أقوال ذلك الفاتح العظيم وسيرته أيام كان بمصر انه كان معجباً بمحمد وعمر وبكثير من أبطال الإسلام وان نفسه حدثته لما كان بمصر أن يتخذ الإسلام ديناً له .

فالقرآن قد أنشأ إذاً العرب نشأة مستأنفة وخلقهم خلقاً جديداً وأخرجهم من جزيرتهم والسيوف في إحدى اليدين والكتاب في الأخرى يفتحون ويسودون ، ويتمكنون في الأرض بطولها وعرضها .

ولا عبرة بما يقال في شأن العرب قبل الإسلام ، وما يروى من فتوحات لهم ومدنيتهم أثيلة ، وما ينوّه به من أخلاق عظام في الجاهلية ، فهذه ولا جدال قد كانت ولا تزال آثارها ظاهرة ، ولا شك في مدينة العرب القديمة وانها من أقدم مدنيتهم العالم على الاطلاق ، ومما يرجح ان الكتابة قد بدأت عندهم ، وانه لو فرض ان الفينيقيين الذين اخترعوا الكتابة في العالم فالفينيقيون في الحقيقة أمة سامية عربية ، ولكن دائرة قلمك المدنية كانت محدودة مقصورة على الجزيرة وما جاورها . وقد أتى على العرب حين من الدهر سادهم الغرباء في ارضهم ، وأذلهم الاجانب في عقر دارهم ، كالفرس في اليمن وعمان والحيرة ، وكالحبشة في اليمن ، وكالروم في اطراف الحجاز ومشارف الشام . والحقيقة انهم لم يستقلوا استقلالاً حقيقياً واسماً إلا بالاسلام ، ولم تعرفهم الأمم البعيدة وتخنّع لهم الممالك العظام والقياصرة والاكاسرة وتحدث بصولتهم الناس ولم يقعدوا من التاريخ المقعد الذي أحلهم في الصف الاول من الأمم الفاتحة إلا بمحمد ﷺ .

فالسبب الذي به نهضوا وفتحوا ، وسادوا وشادوا ، وبلغوا هذه المبالغ كلها من المجد والرفي ، يجب علينا ان نبحث عنه وننشده ، ونخفي المسألة ونعمن في النشدان: أهو باق في العرب وهم قد تأخروا برغم وجوده وتأخر معهم تلاميذهم الذين هم سائر المسلمين ، أم قد ارتفع هذا السبب من بينهم ، ولم يبق من الايمان إلا اسمه ، ومن الإسلام إلا رسمه ، ومن القرآن إلا الترنم به ، دون العمل بأوامره ونواهيه ، إلى غير ذلك مما كان في صدر الأمة وعنجهيه الشريعة .

فقد المسلمين السبب الذي ساد به سلفهم :

إذا فحصنا عن ذلك وجدنا ان السبب الذي به استقام هذا الامر قد أصبح مفقوداً بلا نزاع ، وان كان بقي منه شيء كباقي الوشم في ظاهر اليد

فلو كان الله تعالى وعد المؤمنين بالعزة بمجرد الاسم دون الفعل لكان يحق لنا أن نقول : أين عزة المؤمنين ؟ من قوله تعالى :

وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ (١)

ولو كان الله قد قال :

وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٢)

بمعنى انه ينصرهم بدون أدنى مزية فيهم سوى انهم يعلنون كونهم مسلمين ، لكان ثمة محل للتعجب من هذا الخذلان بعد ذلك الوعد الصريح بالنصر . ولكن النصوص التي في القرآن هي غير هذا ، فالله غير مخلف وعده ، والقرآن لم يتغير ، وإنما المسلمون هم الذين تغيروا ، والله تعالى أنذر بهذا فقال :

إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ (٣)

فلما كان المسلمون قد غيروا ما بأنفسهم كان من العجيب أن لا يغير الله ما بهم ، وان لا يبدلهم الذل والضعمة ، من ذلك العز وتلك الرقعة ، بل كان ذلك يُعَدُّ مناقياً للعدل الإلهي . والله عز وجل هو العدل المحض .

كيف ترى في أمة ينصرها الله بدون عمل ويفيض عليها الخيرات التي كان يفيضها على آبائها ، وهي قد قعدت عن جميع العزائم التي قد كان يقوم بها آبؤها ؟ وذلك يكون أيضاً مخالفاً للحكمة الإلهية والله هو العزيز الحكيم .

(١) المنافقون : من الآية ٨ ،

(٢) الروم : من الآية ٤٧ ،

(٣) الرعد : من الآية ١٢ .

وما قولك في عزة دون استحقاق ، وفي غلة دون حرث ولا زرع ، وفي فوز دون سعي ولا كسب ، وفي تأييد دون لدنى سبب يوجب التأييد ؟

لا جرم ان هذا مما يفري الناس بالكسل ، ويجول بينهم وبين العمل ، بل مما يخالف النواميس التي أقام الله الكون عليها وهو مما يستوي به الحق والباطل ، والضار والنافع ، والموجب والسالب ، وحاشا الله ان يفعل ذلك . ولو أيد الله مخلوقاً بدون عمل لأيد من دون مجل - محمداً رسوله ولم يحوجه إلى القتال والنزال والنضال ، واتباع سنن الكون الطبيعية للوصول إلى الغاية .

وتصور أمة الله عندها مائة وهي تؤدي من المائة خمسة فقط ، أتعد نفسها قد أدت ما عليها وهي تطمع في ان يكافئها الله كما كان يكافيء أجدادها الذين كانوا يؤدودن المائة مائة ، وإن قصرُوا عن المائة أدوا بالأقل تسعين او ثمانين منها ؟ كل هذا يخالف لما وعد الله على رسله ومخالف للعقل والمنطق ، ومخالف لحكمة التشريع ، وليس هذا هو الشرط الذي شرطه الله على المؤمنين ، وليس هذا هو البيع الذي يستبشر به المؤمنون .

قال الله تعالى :

إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِآنَ لَهُمُ
الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ، وَعَدَا عَلَيْهِ
حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنْ

اللَّهِ؟ فَاسْتَبَشِرُوا بِبَيْعِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ . وَذَلِكَ هُوَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١) .

فأين حالة المسلمين اليوم من هذا الوصف الذي في كتاب الله؟ وأين
حالتهم من سلفهم الذين كانوا يتهافتون على الموت الأحمر لإحراز الشهادة
وكثيراً ما كانوا يندشون الموت ولا يحدونه؟ وكان فارسهم يكر وهو يقول:
إني لأشم ريح الجنة ، ثم لا يزال يكر ويخوض غمرات الحرب حتى إذا
استشهد قال : هذا يوم الفرح ، وإذا فاتته الشهادة برغم حرصه عليها عاد
إلى قومه حزينا كئيباً .

المقابلة بين حالي المسلمين والافرنج اليوم :

اليوم فقد المسلمون أو أكثرهم هذه الحماسة التي كانت عند آباءهم ، وإنما
تخلِّق بها اعداء الإسلام الذين لم يوصهم كتبهم بها ، فتجد أجنادهم تتوارد
على حياض المنايا سباقاً ، وتتلقى الأسنة والحراب عناقاً ، ولقد كان مبلغ
مفاداتهم بالفائس وتضحيتهم للنفوس في الحرب العامة فوق تصور عقول
البشر ، كما يعلم ذلك كل أحد ، فالألمان فقدوا نحو مليوني قتيل ، والفرنسيون
فقدوا مليوناً وأربعمائة ألف قتيل ، والانكليز فقدوا ستمائة ألف قتيل ،
والطليان فقدوا أربعمائة وستين ألف قتيل ، والروس هلك منهم ما يفوق
الاحصاء وهلم جرأ . هذا من جهة النفوس ، وانكلترا بذلت سبعة مليارات
من الذهب (أي سبعة آلاف مليون جنيهه) وفرنسة بذلت نحو مليارين ،
والمانيا أنفقت ثلاثة ، وإيطاليا أنفقت خمسمائة مليون ، وروسية أنفقت ما
أوقع فيها المجاعة التي آلت إلى الثورة ثم إلى البلشفة ، وهلم جرأ .

(١) التوبة : ١١٢ ،

- فليقل لي قائل : أية أمة مسلمة اليوم تتقدم على ما أقدم عليه هؤلاء النصارى من بيع النفوس وإنفاق الأموال بدون حساب في سبيل أوطانهم ودولهم حتى نعجب نحن لماذا آتاهم الله هذه النعمة والمظمة والثروة وحرّم المسلمين اليوم أقل جزء منها ؟

وقد يقال : إن المسلمين فقراء ليس عندهم هذه الأموال لينفقوا هذا الانفاق كله . فتجيب بأذنا نوزع هذه النفقات على الأوروبيين بنسبة رأس المال لا نكلف المسلمين إلا الانفاق مثل الأوروبيين على هذه النسبة ، فهل تسخو الأمم الإسلامية الحاضرة بما تسخو الأمم الأوروبية التي منها من قد أنفقت في الحرب العامة أكثر من نصف ثروتها ؟

الجواب : لا . ليس في المسلمين اليوم من يفعل ذلك لا أفراداً ولا أقواماً ، ونذر في المسلمين من ينفق الزكاة الشرعية .

وقد يقال : إن الأمة التركية وهي أمة مسلمة قد أنفقت كل ما تقدر عليه في حرب اليونان ولم تقصر عن شأو الأوروبيين في المفاداة بالأنفس والنفائس .

والجواب : نعم .

قد كان ذلك . ومن الترك من بذل ثلث ثروته ومنهم من بذل نصف ثروته في هذه الحرب ، ولكنهم لما فعلوا ذلك انقلبوا بنعمة من الله وفازوا ، وحرروا أنفسهم واستقلوا ، وارتفعوا بمد أن كانوا هووا ، وعزوا بمد أن كانوا ذلوا . إذا الأمم الإسلامية إذا انتمرت في المعادة بما أمرها به كتابها كما كان يفعل آباؤها ، أو اقتدت على الأقل بما هو دأب الأوروبيين اليوم من بذل النفوس والنفائس في سبيل حفظ بيضتها ، وذود المعتمدين عنها ، لم تقطف من ثمرات التضحية إلا مثل ما قطفه غيرها . وانقلبت بنعمة من الله وفضل لم يمسهما سوء .

ولكن الامم الإسلامية تريد حفظ استقلالها بدون مفاداة ولا تضحية ، ولا بيع أنفس ولا مسابقة إلى الموت ، ولا مجاهدة بالمسال ، وتطالب الله بالنصر على غير الشرط الذي اشترطه في النصر (١) فإن الله سبحانه يقول :

وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ (٢) . ويقول : إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ
يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٣) .

ومن المعلوم ان الله تعالى غير محتاج إلى نصره احد ، وإنما يريد بنصرته تعالى اطاعة أوامره واجتناب نواهيه . ولكن المسلمين اهلوا جميع ما أمرهم به كتابهم (في ذلك) او أكثره ، واعتمدوا في استحقاق النصر على كونهم مسلمين موحديين ، وظنوا ان هذا يغنيهم عن الجهاد بالنفس والاموال . ومنهم من اعتمد على الدعاء والابتهاال لرب العزة لانه يجده أيسر عليه من القتل والبنال . ولو كان مجرد الدعاء يعني عن الجهاد لاستغنى به النبي ﷺ وصحابته وسلف هذه الأمة فإنهم الطبقة التي هي أولى بأن يسمع الله دعاءها . ولو كانت الآمال تبلغ بالادعية والاذكار ، دون الاعمال والآثار ، لانتقضت سنن الكون ، وبطل التشريع ولم يقل الله تعالى :

وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى (٤) .

(١) النار: راجع تفصيل هذه المسألة في اجزاء تفسير المنار تجده بدلالة الفهارس في مواضع من اكثرها ، منها ١٣ موضعاً في الجزء الرابع منه و ٧ مواضع في الجزء الثاني ، وآخرها في آخر الجزء التاسع ولها مزيد في بضع مواضع من الجزء العاشر (ر) .

(٢) الحج : ٤٠

(٣) محمد : من الآية ٧ .

(٤) النجم : ٣٩ .

ولم يقل :

وَقُلِ أَعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ^(١) .

ولم يقل للمعتذرين عن القتال :

لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ
وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ^(٢) .

ولم يقل :

أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ ^(٣) .

لقد ظن كثير من المسلمين انهم مسلمون بمجرد الصلاة والصيام وكل ما لا يكلفهم بذل دم ولا مال ، وانتظروا على ذلك النصر من الله . وليس الامر كذلك فإن عزائم الإسلام لا تنحصر في الصلاة والصيام ، ولا في الدعاء والاستغفار ، وكيف يقبل الله الدعاء من قعدوا وتحلفوا ، وقد كان في وسعهم أن ينهضوا ويبدلوا ^(٤) .

(١) التوبة : من الآية ١٠٦ .

(٢) التوبة : من الآية ٩٤ .

(٣) آل عمران : من الآية ١٩٥ .

(٤) يظهر ان الامير لم يقرن الزكاة بالصلاة والصيام لعلمه بأن أكثرهم تركها وهي ركن الاسلام الدنيوي المادي ، والصلاة ركته الروحي ، وهم يطلبون الدنيا ويتركون من الاسلام أهم أركانها - الزكاة والجهاد بالمال والنفس في سبيل الله - وقد وصف الله المؤمنين الصادقين بالجهاد بأموالهم وأنفسهم فقدم ذكر المال وقال في سياق آيات القتال : (وأنفقوا في سبيل الله ولا تلهوا بأيديكم إلى التهلكة) أى بعدم الانففاق وقد قاتل الصحابة (رض) من منع الزكاة ولم يعتدوا باسلامهم بدونها (ر) .

اعتذار المسلمين عن أنفسهم وردده :

يقولون : ليس عند المسلمين ما عند الافرنج من الثروة والسعة لينفقوا في أعمال الخير وفي مساعدة بعضهم بعضاً . فنقول لمن يحتج بهذه الحجة إننا نرضى منهم أن ينفقوا على نسبة رؤوس أموالهم كما تقدم الكلام عند ذكر الجهاد بالمال . فهل المسلمون فاعلون ؟

إننا نراهم قد محوا رسوم الأوقاف والمؤسسات الخيرية التي تركها آباؤهم ، فضلاً عن كونهم لا يتبرعون بأموالهم الخاصة ولا يرحلون مع الاوروبيين في ميدان من جهة التبرع لأجل المشروعات العامة ، فكيف يطمع المسلمون أن تكون لهم منزلة الاوروبيين في البسطة والقوة والسلطان ، وهم مقصرون عنهم بمراحل في الإيثار والتضحية ؟ فان العمل لأجل السلطان في الأرض ، أشبه بالحرث في الأرض ، فبقدر ما تشتغل فيها هي تعطيك . وإن قصرت في العمل قصرت في الثمر ، والمسلمون يريدون سلطاناً يشبه سلطان الاوروبيين بدون إيثار ولا بذل ، ولا فقد شيء من لذائذهم ، ويدعون ان الله تعالى يقول :

وَأَنْتَبِلُونَكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ
الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالْثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ (١) .

وقد يقولون : إننا جربنا البذل والتضحية ، وابتلينا بالنقص من الاموال والأنفس والثمرات وصبرنا ولم يفدنا ذلك شيئاً ، وبقي الاوروبيون مسلمطين علينا ، إني أنقل هذا القول عن بعضهم لأني قد سمعته كثيراً .

والجواب : هل يقدرّون أن يقولوا لنا أن ما يدعونه من البذل والتضحية

(١) البقرة : ١٥٥ .

يشبه شيئاً مما يقوم به النصارى واليهود من هذا القبيل ؟ او انه إذا نسب اليه تكون نسبته نسبة الواحد إلى المائة ؟

عندنا مثال حديث العهد هو مسألة فلسطين : حدثت وقائع دموية بين العرب واليهود في فلسطين فأصيب بها أناس من الفريقين فأخذ اليهود في جميع أقطار الدنيا يساعدون المصابين من يهود فلسطين ، وأراد العالم الإسلامي أن يساعد عرب فلسطين كما هو طبيعي ، فبلغت تبرعات اليهود لأبناء ملتهم من فلسطين مليون جنيه ، وبلغت تبرعات المسلمين كلها ١٣ ألف جنيه أي نحو جزء من مائة (١) .

فسيقولون : ان المسلمين لا يملكون مثل ثروة اليهود . ونعود فنجيبهم نرضى منهم بأن ينفقوا في مساعدة ملتهم على قدر اليهود والافرنج بالنسبة إلى رؤوس أموالهم ، ولا نطالب منهم الفقراء الذين لا يملكون ما يزيد على كفاية عائلاتهم .

(١) عنيت بهذه الواقعة الفتنة التي جرت سنة ١٩٢٩ ميلادية وكان مجموع ما أعان به العرب اخوانهم في فلسطين ثلاثة عشر الف جنيه لا غير إلا أن حوادث الدهر علمت المسلمين وأبقتهم ويران المصائب والخطوب أحسنت سبكم . ففي هذه السنوات العشر الاخيرة بدأوا يقتدون باليهود والاوروبيين في البذل وساروا فيه على أثرهم وان كانوا لا يزالون في اول الطريق ولقد أحصيت اعانات العرب لاخوانهم في فلسطين بين سنتي ١٩٣٧ و ١٩٣٨ فزادت على ما كان يحصل من قبل ولكن هذه الاعانات أثمرت ثمرها وثبتت أقدام العرب في وجه الانكليز واليهود حتى اضطر الانكليز الى سوق ٣٠ الف جندي هم في نضال مستمر من سنتين الى الآن مع العرب ووراءهم قوى عظيمة من البوليس واليهود المسلحين والحائنين من العرب أنفسهم ومن قوة شرقي الأردن ، ولم يتمكنوا من اخاد الثورة ولا حصولا على طائل ، وعادت الانكليز فنكصت على أعقابها ورضيت بعقد مؤتمر في لندرة تحضره وفود الدول العربية لمساعدتها على حل المعضلة الفلسطينية ورجعت عن برنامجها الاول وهو اعطاء فلسطين لليهود راضية بأن يكون هؤلاء ثلث عدد السكان لا يزيدون على الثلث فهذا التحول نتيجة المقاومة وهذه المقاومة إنما كانت نتيجة البذل والسماح واستصغار الدنيا ، ومن استصغر الدنيا كبرت لديه ، ومن هانت عليه الحياة جاءت له الحياة تسعى على رجليها سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلاً (ش) .

قال الله تعالى :

لَيْسَ عَلَى الضَّعْفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا
يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى
الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ (١) .

ثم قال تعالى :

إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا
بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ (٢) .

ولجيب أيضاً :

إنه وإن كان اليهود أغنى بالأموال من المسلمين فالمسلمون أكثر جداً
بالعدد، لأن اليهود عشرون مليوناً، والمسلمين نحو من أربعمئة مليون^(٣). فلو ان
كلاً من المسلمين تبرع الفلطين بقرش واحد -- وهو الذي لا يعجز عنه أحد
في العالم منها اشتد فقره -- لاجتمع من ذلك ثلاثة ملايين جنيه ونصف .

(١) التوبة : من الآية ٩١ .

(٢) التوبة : من الآية ٩٣ .

(٣) بعد ان ثبت بالأحصاء الرسمي ان مسلمي الصين خمسين مليون نسمة تحقق ان مسلمي
المعمر كله لا يقلون عن اربعمائة مليون منهم ٢٤ مليوناً من العرب في آسيا و ١٧ مليوناً من
الترك في الاناضول و ١٦ مليوناً في ايران و ١٠ ملايين في افغانستان و ٨٥ مليوناً في الهند
و ٥٦ مليوناً في الجارى و ٢٥ مليوناً في الرسية وثلاثة ملايين في أوروبا و ٥٠ مليوناً في
الصين وسائة مليون في افريقية .

فلنترك تسعة أعشار المسلمين ونفرض هذه الاعانة لفلسطين على عشر واحد منهم أي على ٣٥ مليون نسمة لا غير . وهؤلاء الخمسة والثلاثون مليون نسمة نجدهم حول فلسطين في لمحة بصر . فإن مسلمي مصر وسورية وفلسطين والعراق ونجد والحجاز واليمن وعمان هم ٣٥ مليوناً . ولنتقاض من هؤلاء أداة قرش واحد عن كل جمجمة ، فماذا يجتمع لنا من ذلك ؟

الجواب : يجتمع ثلاثمائة وخمسون ألف جنيه .

فالمسلمون قد تبرعوا عن هذه الاعداد كلها بثلاثة عشر ألف جنيه أي بما يساوي نحو ثلثي عشر القرش عن كل نسمة من عشر عددهم .

أهذا ما تريدون أن تسموه « تضحية » ؟

أو بمثل هذا تجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ؟

أو هذه درجة نجاتكم لاخوانكم في الدين وجيرانكم في الوطن والقائمين عنكم بالدفاع عن المسجد الأقصى الذي هو ثالث الحرمين وأول القبلتين ؟ أفلم يقل الله تعالى :

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ (١) .

أفهنه نجدة الأخ لأخيه ؟

يقولون : لماذا سادت الأمة الانكليزية هذه السيادة كلها في العالم ؟ نجيبهم : انها سادت بالاخلاق والمبادئ الوطنية العالية . حدثني رجل ثقة أنه يعرف انكليزياً ذا منصب في الشرق كان يأمر خادمه ان يشتري له الحوائج اللازمة لبيته يومياً من دكان رجل انكليزي في البلدة التي هم فيها .

(١) الحجرات : من الآية ١٠ .

فجاءه الخادم مرة يجداول حساب وفر عليه به ٢٠ جنيتهاً في شهر . فسأله
الانكليزي : كيف امكنتك هذا التوفير ؟

فقال الخادم : تركنا دكان الانكليزي الذي كنا نشترى منه وصرنا
نشترى من دكان أحد الاهالي من العرب .

فقال له الانكليزي : ارجع الى دكان الانكليزي الذي كنا نشترى منه .

فقال الخادم : أو لو كان ذلك يستلزم انفاق ٢٠ جنيتهاً زيادة ؟

قال الانكليزي : ولو كان ذلك يستلزم انفاق ٢٠ جنيتهاً زيادة .

وسمعت أن كثيرين من الانكليز الذين في الاقطار لا يشترون شيئاً ذا قيمة
إلا من بلادهم ويرسلون إلى لندرة فيوصون على كل ما يحتاجون اليه حتى لا
ينذهب مالهم إلى الخارج .

أفنتيس هذا بأعمال المسلمين الذين مها أوصيتهم بالشراء من أبناء جلدتهم
او اوطانهم وعلموا أنهم يقدرون ان يوفروا في السلعة الواحدة نصف قرش
إذا أخذوها من الافرنجي تركوا ابن جلدتهم أو ملتهم ورجعوا الافرنجي ؟
أفلم يكن سبب حبوط مقاطعة العرب لليهود في فلسطين أشياء كهذه (١) ؟
حرموا أنفسهم أمضى سلاح في يدهم وهو المقاطعة في الأخذ والعطاء مع اليهود
من أجل فروق تافهة مؤقتة ونسوا أن الضرر الذي يصيبهم من الأخذ والعطاء
مع اليهود هو أعظم ألف مرة من ضرر هاتيك الفروق الزهيدة .

(١) اما الآن فقد أصبح السواد الأعظم منهم يبذلون النفوس والنفائس في الدفاع عن وطنهم
فلسطين وأتوا في هذه السبيل بما ارتفعت له رؤوس العرب جميعاً ولو ان هذه المنادة ظهرت
منهم من أول الأمر ما وصلت المصيبة الى هذا الحد (ش) .

نتائج اعانة مصر مجاهدي طرابلس وبرقة :

وكنت مرة أشكو إلى أحد كبار المصريين إهمال اخواننا المصريين لمجاهدي طرابلس وبرقة الذين إن لم تجب عليهم نجدتهم قياماً بواجب الاخوة الإسلامية والجوار ، وجبت عليهم احتياطاً من وراء استقلال مصر واستقبال مصر ، لانه كما ان وجود الانكليز في السودان هو تهديد دائم لمصر ، فوجود الطليان في برقة هو تهديد دائم لها أيضاً .

فكان جواب ذلك السيد لي : لقد بذل المصريون مبالغ وفيرة يوم شنت ايطالية الغارة على طرابلس ولم يستفيدوا شيئاً فان ايطالية لم تلبث أن أخذتها .

فقلت له : إن المصريين قد نهضوا في الحرب الطرابلسية نهضة هي دون شك ترضي كل مسلم بل ترضي كل إنسان يقدر قدر الحمية ، ولكن المبلغ الذي تبرعوا به يومئذ معلوم وهو ١٥٠ الف جنيه .

فهل يطمع المسلمون في أنحاء المعمور أن ينقذوا طرابلس من برائن ايطالية بمائة وخمسين الف جنيه؟ وهل هذه التضحية تقاس في كثير أو قليل إلى التضحيات التي قامت بها ايطالية بالمال والرجال ؟

كانت إعانة مصر في الحرب الطرابلسية ١٥٠ الف جنيه وانفقت الدولة العثمانية على تلك الحرب نحو مليون جنيه .

فانظر إلى ما كان لذلك من النتائج .

(النتيجة الأولى) وهي أهم شيء: حفظ شرف الإسلام وافهام الاوروبيين أن الإسلام لم يمت وأن المسلمين لا يسلمون بلدانهم بلا حرب وفي ذلك من الفائدة المادية والمعنوية للإسلام ما لا ينكره إلا كل مكابر .

(النتيجة الثانية) ان هذا المبلغ الضئيل بالنسبة إلى نفقات الدول الحربية قد كان السبب في توطين الطرابلسيين أنفسهم على المقاومة والمجاهدة بما رأوا من نجدة اخوانهم لهم . فكانت هذه المقاومة سبباً لتجشم إيطالية المعتدية من المشاق والحسائر ما هو فوق الوصف إلى أن صار كثير من ساسة الطليان يصرحون بندمهم على هذه الغارة الطرابلسية .

(النتيجة الثالثة) مها يكن من عدد القتلى الذين فقدهم العرب في هذه الحرب فان مجموع قتلى الطليان إلى اليوم يفوق مجموع قتلى العرب أضعافاً مضاعفة .

فلقد لقي الطليان في هذه الحرب من الاهوال ما لا يتسع لوصفه مقالة أو رسالة . وفي واقعة واحدة هي واقعة « الفويهات » على باب بنغازي ثبت فيها ١٥٠ مجاهداً عربياً لثلاثة آلاف جندي طلياني من الفجر إلى غروب الشمس إلى ان انقرضوا جميعاً ، إلا أفضاداً أتى عليهم الليل ، ورجع العدو ولما يموتوا : وبينما كان العرب في حزن عظيم على من فقدوهم في تلك المعركة إذ جاءهم الخبر البرقي من الاستانة عن برقية وردت سرّاً من برلين عن برقية رقية جاءت من سفارة الالمان في رومية بأنه سقط في هذه المعركة الف وخمسة جندى من الطليان وأصاب الجنون سبعة من ضباطهم .

وهذه وقعة من خمسين وقعة بالأقل تضاهيها، فالمسلمون قد قاتلوا في هذه المعركة جيشاً يفوقهم في العدد عشرين ضعفاً وقتلوا نصفه أي قتلوا عشرة أضعافهم — والله تعالى قد قدر لهم في حال القوة ان يغلّبوا عشرة أضعافهم وفي حال الضعف أن يغلّبوا ضعيفهم فقط كما قال في سورة الأنفال (١) :

(١) الآية ٦٦ .

بِأَيِّهَا النَّبِيُّ حَرَضَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ
عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا
أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ * أَلَا
خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ، فَإِنْ يَكُنْ
مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ
يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ .

(النقيجة الرابعة) انه قد كانت نفقات ايطاليا في الحرب الطرابلسية في
السنة الاولى منها أي من سنة ١٩١١ إلى سنة ١٩١٢ نحو مائة مليون جنيه ،
ويظن انها من عشرين سنة إلى اليوم— إذ المقاومة لم تنقطع حتى هذه الساعة—
قد بلغت ثلاثمائة مليون جنيه (١) .

فهذا كان كله نتيجة تلك الاعانات القليلة والنفقات الضئيلة التي قام بها
المسلمون في تلك الحرب ، ولكن المسلمين ينتظرون ان تنهزم ايطاليا الدولة
الكبيرة التي أهلها ٤٤ مليون نسمة ودخلها السنوي ٢٠٠ مليون جنيه في

(١) أما في هذا العهد فقد انقطعت المقاومة بالسلاح وكان آخر من قاوم الطليان بالسلاح
الشهيد والمجاهد الكبير عمر المختار رحمه الله الا ان الطرابلسيين لا يزالون يقاومون الاستعمار
الاطلياني كما يقاوم التونسيون وسائر المغاربة الاستعمار الفرنسي ومن المبعث ان تظن دول الاستعمار
اخذ الحركات الوطنية بالمسف والقهر والقتل والتنقي والحبس فكل هذا لا يزيد المسلمين إلا
عداء وما استصلح عدو بمثل العدل (ش) .

صدمة واحدة أو في السنة الأولى من الحرب (١) وإن لم يتحقق أملمهم هذا انقطع منهم كل رجاء وبطلت كل حركة ، وأصاب بعضهم اليأس الذي هو مرادف للكفر بصريح الذكر الحكيم .

إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ (٢) .

(١) أي هذا عددها . وهذا دخلها ، وهذا انفاقها على الحرب وأما عصبيتها وضراوتها في سفك دماء المسلمين فحسب المسلم الذي لم يفسده التفرنج والاحاد ان يقرأ النشيد الطلياني الذي نقل ترجمته عن جريدة الفتح نقلاً عن جريدة الشرق عدد ٥٤٣ هـ وهو :

النشيد الطلياني في التحريض على قتال المسلمين ومحو القرآن .

إن من أعظم الآلام لشاب في العشرين من عمره ان لا يحارب في سبيل وطنه مع دوام القتال في طرابلس ، والراية المثلثة الالوان والموسيقى الحربية تنبهان النفس المقدامة . يا أمماه أتمي صلاتك ولا تبكي ، بل اضحكي وتألمي ، ألا تعلمين أن ايطالية تدعوني وانا ذاهب الى (طرابلس) فرحاً مسروراً لأبذل دمي في سبيل سحق الأمة الممونة (كذا) ولأحارب الديانة الاسلامية التي تجيز البنات الأبنكار للسلطان (*) .

سأقاتل بكل قوتي لمحو القرآن (كذا) .

ليس بأهل للمجد من لم يت ايطالياً حقاً .

تحمسي أيتها الوالدة ، تذكري (كاروني) التي جادت بأولادها في سبيل وطنها : -

يا أمماه انا مسافر .ألا تعلمين ان على الامواج الزرقاء الصافية من بحرنا ستلقي سفائننا المراسي؟ انا ذاهب الى طرابلس مسروراً لان رايتنا المثلثة الالوان تدعوني . وذلك القطر تحت ظلها . =

(٢) يوسف : من الآية ٨٧ .

(*) الديانة الاسلامية لا تجيز للسلطان إلا ما تجيزه لغيره من المسلمين ، وهو تزوج البكر والثيب ، ولكن الافرنج تبيح لهم نصرانيتهم الافتراء على الاسلام وتبيح لهم مدنيتهم الزنا حتى أفسدوا كل قطر دخونه ببغاياهم لا سبياً الطليان منهم (ر) ،

ولنضرب مثلاً ثالثاً ونمسك بعده عن ضرب الامثال لانها لا تعد ولا تحصى :

قام أهل الريف المغربي في وجه الدولة الاسبانية مدة بضع سنين إلى ان تغلبوا عليها وطردها جيوشهابعد ان أبادوا منهم في واقعة واحدة ٢٦ الف جندي وغنموا ١٧٠. مدقماً مع ان جميع اهل الريف بقضهم وقضيضهم ثمانمائة الف نسمة . وعدد اهالي اسبانية ٢٢ مليون نسمة ، وارااضي الريف اكثرها قاحل والاهالي فيه فقراء يعيشون من كسب ايديهم ، ولقد قاموا بعمل أدهش اهل الارض بالطول والعرض .

فلو كان اهل الريف نصارى لانتالت عليهم الملايين من الجنهيات من كل الجهات اما بطريقة خفية وإما بواسطة جمعية الصليب الاحمر في سبيل مداواة جرحاهم .

فليقل لنا المسلمون كم جنهياً قدموا للريف في ذلك الوقت ؟

ثم تألب الفرنسيين مع الاسبانيين وحشدوا ل حرب الريفين ٣٠٠ الف مقاتل وحصروا الريف من كل جانب من البر والبحر وكانت طياراتهم القاذفة بالديناميت على قرى الريفين تحصى بالمئات لا بالعشرات ولم تكف طائرات الفرنسيين والاسبانيول حتى جاء سرب طيارات اميركية من نيويورك نجدة لفرنسة واسبانية (النصرانيتين على المسلمين لانهم مسلمون) .

= لا تموتى لاننا في طريق الحياة ، وإن لم ارجع فلا تبكي على ولدك ولكن اذهبي في كل مساء وزوري المقبرة ونسائم الاصيل تحمل الى طرابلس وداعك الذي لا يأبى الحداد على قبره فلذة كبذك ، وإن سألك احد عن عدم حدادك على فأجيبه : إنه مات في محاربة الاسلام .
الطبل يقرع يا أمهه ، انا ذاهب ايضاً . ألا تسمعين هزج الحرب ، دعيني اعانقك وأذهب ! (ر) .

هذا كله والمسلمون ينظرون إلى حرب الريف مكتوفي الايدي ، ولبنوا
مكتوفي الايدي مدة سنة واخيراً نهض منهم افراد لجمع شيء من اجل
جرحى الريف ، ولأجل نبعث الحمية في الناس لم يكتبف محرر هذه السطور
بالكتابة بل تبرع بأربعة جنيهات لاجل القدوة ، فماذا كان مجموع تلك
الاعانات من كل العالم الإسلامي ؟ الجواب ١٥٠٠ جنيه لا غير . فهل من
خذلان بين المسلمين يفوق هذا الخذلان !

خيانة بعض المسلمين لدينهم ووطنهم واعتذارهم الباطل :

ويا ليت المسلمين وقفوا عند هذا الحد في خذلان الريفيين بل قامت منهم
فئات يقاتلون الريفيين بأشد مما يقاتلون به الاجانب ، وتألبت على محمد بن
عبد الكريم قبائل وافرة العدد شديدة البأس مالأوا الفرنسييس والاسبانيول
على أبناء ملتتهم ووطنهم تزلفاً إلى الفرنسييس والاسبانيول وابتغاء الحظوة
لديهم . وقد جرى مثل ذلك عندنا في سورية يوم الثورة على فرنسة ، وجرى
في بلاد إسلامية كثيرة^(١) ، أفبمثل هذه الاعمال يطالب أخونا الشيخ بسيموني
عمران ربه بما وعد تعالى به من جعل العزة للمؤمنين ؟

وإذا سألت هؤلاء المسلمين المالمئين للعدو على اخوانهم : كيف تفعلون
مثل هذا وأنتم تعلمون أنه مخالف للدين وللشرف وللفتوة وللبروءة والمصلحة

(١) والآن عساكر شرقي الاردن وهم من العرب يقاتلون بكل شدة مجاهدي فلسطين الذين
هم اخوانهم في النسب والمذهب وهم يعلمون ان هؤلاء المجاهدين إنما يندودون عن حياض العروبة
والاسلام ويجودون بنفوسهم لاجل استحياء قومهم واستبقاء وطنهم للعرب وأنه لولا هؤلاء
المجاهدون لتسلم اليهود جميع فلسطين من زمن طويل تحت ظل حراب الانكليز فبينما دماء
المجاهدين تسيل لاجل حفظ فلسطين للعرب نجد دماء عساكر عربية في شرق الاردن تسيل لأجل
اخراج بلاد فلسطين وشرق الاردن نفسها بعد فلسطين من ايدي العرب .
فهل يبلغ العدو من عدوه أكثر مما يبلغ العرب من انفسهم ؟ لا والله (ش) .

والسياسة ؟ أجابوك : كيف نضع فان الاجانب انتدبونا ولو لم نفعل لبطشوا بنا ، فاضطررنا الى القتال في صفوفهم خوفاً منهم . ونسوا قوله تعالى :

أَتَخْشَوْنَهُمْ فَأَلَّ اللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١) .

وقوله تعالى :

فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢)

وكلام مثل هؤلاء في الاعتذار غير صحيح فإن الاجانب قد ندبوا كثيراً من المسلمين إلى خيانات كهذه فلم يجيبوهم ولم تنقض عليهم السماء من فوقهم ، ولا خسفت بهم الأرض من تحتهم ، ثم انه إن كان الأجانب المحتلون لبلاد المسلمين قد أصبحوا يفضبون على المسلمين الذين لا يلبون دعوتهم إلى خيانة قومهم ، فإنما كان ذلك من أجل كثيرين من المسلمين كانوا يعرضون عليهم خدمتهم في مقاومة اخوانهم ويقومون بها بكل نشاط ومناصحة ، ويبدون كل امانة لهم في أثناء تلك الخيانة . ولولا هذا التبرع بالخيانة ، والتسرع إلى مظاهره الأجنبية على ابن الملة ، لما استأسد الأجنبي وصار يتحكم في المسلمين هذا التحكم الفاحش ، ويتقاضاهم أن يخالفوا قواعد دينهم ومقتضى مصلحة دنياهم من أجل مصلحته ، بل قام يحملهم على الموت لأجل الموت .

فإن الموت موتان : أحدهما الموت لأجل الحياة وهو الموت الذي حث

(١) التوبة : من الآية ١٤ .

(٢) آل عمران : من الآية ١٧٥ .

عليه القرآن الكريم المؤمنين إذا مد العدو يده اليهم وهو الموت الذي قال عنه
الشاعر العربي :

تَأَخَّرْتُ أُسْتَبْقِي الْحَيَاةَ فَلَمْ أَجِدْ

لِنَفْسِي حَيَاةً مِثْلَ أَنْ أَتَقَدَّمَ

وهو الموت الذي يموته الافرنسي لأجل حياة فرنسة ، والاماني لأجل
حياة المانية ، والانكليزي في سبيل بريطانيا العظمى - وهلم جرأ - ويجده
على نفسه واجبا لا يتأخر عن ادائه طرفة عين .

وأما الموت الثاني فهو الموت لأجل استمرار الموت ، وهو الموت الذي
يموته المسلمون في خدمة الدول التي استولت على بلادهم . وذلك انهم يموتون
حتى ينصروها على اعدائها كما يموت المغربي مثلاً حتى تنتصر فرنسة على المانية
مثلاً . ويموت الهندي حتى تتغلب انكلترا على أي عدو لها . ويموت التتري
في سبيل ظفر الروسية . والحال أنه بانتصار فرنسة على اعدائها تزداد في
المغرب غطرسة وظلماً وابتزازاً لأملاك المسلمين وهضمناً لحقوقهم ، وذلك كما
حصل بعد الحرب العامة إذ ازداد طمع الفرنسيين في أهل المغرب وحدثوا
أنفسهم بتنصير البربر ليدمجوهم في الشعب الفرنسي ويأمنوا على مستقبل
المغرب الذي صاروا يطلقون عليه لقب « افريقية الافرنسية » .

وبالاختصار يموت المغربي على ضفاف الرين أو في سورية حتى يزداد موتاً
في المغرب ، لأن كل طائفة تفوز بها فرنسة في الخارج هي زيادة في قهر المغربي
وإهانته وإذلاله مما لا سبيل للمناكرة فيه ، ومما قد ثبت بالتجربة . وكذلك
موت الهندي في نصره انكلترا هو تطويل في أجل عبودية الهند وكذلك
موت التتري في خدمة الروسية لا عاقبة له سوى ازدياد قهر الروس للتتر .
وهلم جرأ .

وهذا الموت لأجل الموت هو ما كان بخط منحنا كما يقال أي باعتبار النتيجة ، ولكنه هناك موت لأجل الموت مباشرة بدون واسطة ، وهو عندما يموت المغربي في قتال أخيه المغربي الذي قام يحاول أن يزحزح شيئاً من النير الافرنسي الذي كاذ يدق عنقه ، وان لم يدق عنقه بتاتاً استحياء حياة هي أشبه بالموت منها بالحياة .

ولو انحصرت هذه الأمور في العوام والجهلاء لعذرناهم بجهلهم ، وقلنا انهم لا يدرون الكتاب ولا السنة ولا السياسة الدنيوية ، ولا الاحوال العصرية ، وانهم إنما يساقون كما تساق بهيمة الانعام إلى الذبح .

ولكن الأنكى هو خيانة الخواص . مثال ذلك الوزير المقرئ الذي هو أشد تعصباً لقضية رفع الشريعة الإسلامية من بين البربر من الفرنسيين أنفسهم^(١) . ومثله البغدادي باشا فاس الذي طرح نحو مائة شخص من شبان فاس وجلدهم بالسياط لكونهم اجتمعوا في جامع القرويين وأخذوا يرددون دعاء : « يا لطيف ألطف بنا فيما جرت به المقادير ولا تفرق بيننا وبين إخواننا البرابر » ومفتي فاس الذي أفتى بأن إلغاء الشرع الإسلامي من بين البربر ليس باخراج للبربر من الإسلام وهم جرا .

وكل من هؤلاء الخونة المارقين أخزاهم الله قد بلغ من الكبر عتياً ، وانتهى من أموال الأمة شعباً ورياً . وهو لا يزال حريصاً على الزلفى إلى فرنسة ،

(١) ويؤكدون انه كلما ارادت فرنسا تحت تأثير سخط العالم الاسلامي ان تعدل عن الظهير البربري المقصود به إخراج البربر من الاسلام بتاتاً جاء هذا المقرئ يجردها عقاباً الرجوع الى الصواب ويقول لها ان اهالي المغرب يمدون هذا مغها نكوصاً وضعفاً وبعد ذلك لا يمكنها ان تثبت أقدامها في شمالي افريقية فالمقرئ إذاً هو اكبر مشجع للحكومة الافرنسية على المضي في سياستها البربرية التي ترمي الى تنصير البربر وادماجهم في الامة الافرنسية (ش) .

واثبات صداقته لها ولو بضياح دينه ودينياه ، حتى تبقي عليه منصبه وحظوظه في هذه البقية الباقية من حياته المتاعسة (١) .

وليس واحداً من هؤلاء ولا من في ضربهم في المغرب إلا وهو مطلع على نيات فرنسة وعلى مراميها من جهة هذا النظام الجديد لأمسة البربر ، وليس فيهم إلا من هو عارف بوجود جيش من القسوس والرهبان والراهبات يحوس خلال بلاد البربر ويبنى الكنائس ويصيد اللقطاء والأيتام والفقراء وضعفاء الايمان (٢) ، وليس فيهم إلا من هو عالم بمنع فرنسة فقهاء الإسلام والوعاظ من التجوال بين البربر حتى ترتفع الحواجز أمام دعوة المبشرين إلى النصرانية (٣) وقد يكون المقرري والبغدادى هذان هما في مقدمة الموقعين على الأوامر بمنع علماء الإسلام وحملة القرآن من الدخول إلى قرى البربر . وقد يكون المقرري هذا هو الذي خصص المبلغ من مال الخزن لجريدة «مراكش الكاثوليكية» التي تظعن في الإسلام ، وتقذف محمداً عليه الصلاة والسلام ، ولدينا كثير من أعادها التي تتضمن هذه المطاعن .

وبعد هذا فمن يدري ؟ فقد يكون المقرري مصلياً وصائماً وبيده سبحة

(١) الغريب في هذا ان أمثال هؤلاء الخونة يبيعون بلادهم كلها للأجنبي بثمن خسيس ذو جزء منها لا من مال الاجنبي ، ولو اخلصوا في صده عنها لكان لهم منها اكثر مما يعطيهم الاجنبي منها ثم يكون باقيها لارلامهم وأهلبيهم واخوانهم في الدين مع العز والشرف (ر) .

(٢) وما هو جار في المغرب ان الاذان لصلاة الفجر ممنوع في كثير من القرى التي يقطنها مستعمرو الفرنسيس وذلك لانه قد يمكر عليهم صفو وقادهم صباحاً (ش) .

(٣) وقد منعوا الوعاظ في شهر رمضان من الذهاب الى بلاد البربر وكانوا يجسسون من يخالف هذا الامر وقد اقبلوا مئات من الكتاتيب القرآنية في المغرب ومئات من مثلها في الجزائر واغلقوا دار الحديث في تلمسان واحتجت على ذلك جمعية علماء المسلمين في الجزائر فياسمعوها كلاماً وأصر بعض رجال الدين الاسلامي في الجزائر على تعليم القرآن للاحداث فصحاكهم وحكوا عليهم (بالسجن أربعة اشهر بحجة أنهم خالفوا الأوامر الصادرة . وهلم جراً (ش) .

يقرأ عليها أوراذا . ومن يدري ؟ فقد يكون البغدادي السيء الذكر ممن
يتمسحون بالقبور ويستغيثون بالأولياء ويتظاهرون بهذا الورع الكاذب . وأما
المفتي فهو المفتي فلا حاجة إلى تثبيت كونه بصلي الخمس ، ويصوم ويتهجد
ويوتر ويتنفل الخ .

وقد مضى علينا نحن في سورية شيء من هذا لأوائل عهد الاحتلال لكن
لم تكن خيانة هؤلاء المعلمين في قضية دينية مباشرة . فقد اقترحت عليهم
فرنسة أن يمضوا برفقة إلى جمعية الأمم ينكرون بها عمل المؤتمر السوري
الفلسطيني المطالب باستقلال سورية وفلسطين فأمضاه منهم عمائم مكورة ،
وطيالس محررة مجررة ، ورقاب غليظة ، وبطون عظيمة وان لم أقل الآن :
أخزاهم الله ، أخشى عتاب اخواننا المقاربة الذين يرونني خصصت بهذا الدعاء
صدرهم الأعظم ، ومفتيهم الأكبر ، وأعفيت معلمي سورية ، فلذلك يقضي
العدل بأن نقول أخزاهم الله أجمعين ، أخزى الله الذين منهم في المشرق والذين
منهم في المغرب ممن يوقعون على اقتراحات الاجانب المضرة بالدين والوطن^(١) .

ولعل الأخ الشيخ بسيوني عمران يقول : إن هؤلاء أفراد قلائل فلا يجوز
أن نجعل الأمة الإسلامية مسؤولة عن مخازيهم وموبقاتهم .

والجواب على ذلك : إن الظلم يخص والبلاء يعم كما لا يخفى ، ولكني لا
أسلم ان هؤلاء افراد قلائل ، وان الامة غير مسؤولة ! إذ لو كان وراء
هؤلاء أمة يخشونها ما تجاسروا على الاتجار بدينها بعد الاتجار بدينها بل كانوا

(١) على انهم في السنة التالية أرادوم على امضاء بيانات خبيثة كهذه فامتنعوا واحتجوا لدى
الفرنسيين بان عملهم ذاك قد عرضهم للاهانة واستوجب مقت الشعب السوري لهم فهم لن
يكرروا تلك الخيانة . وهذا دليل على ان الامة تقدر متى شئت ان تقوم أود هؤلاء المشايخ
وان الخائنين الخادمين لدول الاستعمار ليس لهم علاج إلا الخوف على جلودهم (ش) ،

لو اقترح عليهم الفرنسيين اقتراحاً مضرراً بملتهم وأمتهم ولم يقدرُوا على رده
اعتزلوا مناصبهم ، ولزموا بيوتهم .

وكان الفرنسيين كلّفوا بالعمل غيرهم ، فإذا أبى الخلف ما أباه السلف مرة
بعد مرة علم الفرنسيين ان لا فائدة في الاصرار ، فعدلوا عن دسيستهم
البربرية وما أشبهها ، ولكنهم مصرون عليها بسبب استظهارهم بأناس ممن
يزعمون انهم « مسلمون » فهم يهدمون الإسلام بمحاول في ايدي أبنائه ،
ويقولون لنا من هذا الامر في قبيل ولا دبير (١) .

أفلا ترى كيف قاتلوا عن الظهير البربري إنه قد أصدره السلطان
وحكومة المخرن (٢) ؟

أفهدا هو الإسلام الذي ينشأه الله للشيخ بسميوني عمران بتأييد أهله ؟
قال الله تعالى :

وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْلِحُونَ (٣)

(١) وجميع الدول المستعمرة المتسلطة على ممالك الاسلام طريةتها الاستظهار على المسلمين
بالسليين وقضية شرقي الاردن والخرنة من عرب فلسطين من أنصع الشواهد على هذه الحالة .

(٢) أفلا ترى كيف انهم قتلوا في مكناسة الزيتون ٣٥ مسلماً وجرحوا ٦٠ من أجل
مظاهرة غير مسلحة قام بها الاهالي احتجاجاً على سلب السلطة ميساه بساتينهم من أجل اعطائها
الى مستعمرة الفرنسيين وزعموا ان فعلهم هذا باسم السلطان .

أم تراهم القوا الحزب الوطني المغربي وحكوا على الفين وخمسةائة شاب منهم بالحبس سنة
وسنتين ونفوا عملاً الفاسي الى بلاد خط الاستواء ونفوا نخبة رجالات المغرب الى الصحراء
وضربوا ضرباً مبرحاً عشرات من الادباء منهم الاستاذ محمد المقرري الذي مات تحت الضرب وكل
هذا باسم السلطان والسلطان لا ييدي ولا يعيد ولا يقدر ان يدفع عن رعيته التي مرجعها الى
الجنرال نوغيس واضع اساس المشروع البربري الأثيم (ش) .

(٣) سورة هود ١١٤ .

ولا شك أن « المسلمين » الذين يبلغون هذه الدرجات من الانحطاط وتتركهم الأمة الإسلامية وشأنهم يلعبون بحقوقها يستحقون للاسلام التمحيص الذي هو فيه (١) فإنما سمح الله بأن يستولي الاجانب على ديار المسلمين ويجعلوهم خولاً ، ويغتصبوا جميع حقوقهم تعليماً لهم وتهذيباً . وتصفية وتطهيراً كما يصفى الذهب الابريز بالنار .

قال الله تعالى :

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ
بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢) .

لقد أصبح الفساد إلى حد ان أكبر أعداء المسلمين هم المسلمون وان المسلم إذا أراد ان يخدم ملته او وطنه وقد يخشى ان يبوح بالسر من ذلك لأخيه إذ يخطر ان يذهب هذا إلى الاجانب المحتلين فيقدم لهم بحق أخيه الوشاية التي يرجو بها بعض الزلفى . وقد يكون أمله بها فارغاً (٣) .

(١) هكذا في الاصل ومعنى يستحقون هنا يستوجبون على قول الفارابي واللام في الاسلام للتقوية والمراد به المسلمون . والمعنى يستوجبون يجرائهم تمحيص المسلمين في جملتهم ليميز الله الحبيث من الطيب . ويفسره ما بعده وهو مستنبط من قوله تعالى في سياق غزوة أحد :

وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ .

فليراجع السياق من سورة آل عمران وتفسيره المؤثر في الجزء الرابع من تفسير النار (ر) .

(٢) الروم ٤١ ،

(٣) لم يخل بلد من بلدان الاسلام من هؤلاء الخائنين الذين تجعلهم دول الاستعمار مطايا لها في الاستيلاء على تلك البلدان وهم يسمون بين ايديها في كل دسياسة ويدلون على عورات المسلمين وما ينكرونها انهم بهذا العمل يخونون انفسهم وما يشعرون انهم اشبه بمن يصعد على الشجرة =

ولله در الملك ابن سعود حيث يقول : ما أخشى على المسلمين إلا من المسلمين ، ما أخشى من الأجانب كما أخشى من المسلمين (١) .

وهو كلام اصاب كبدا الصواب ، فانه ما من فتح فتحه الأجانب من بلاد المسلمين إلا كان نصفه او قسم منه على أيدي أناس من المسلمين منهم من تجسس للأجانب على قومه ، ومنهم من بث لهم الدعاية بين قومه ، ومنهم من سل لهم السيف في وجه قومه ، وأسأل في خدمتهم دم قومه .

فأين إسلامهم وإيمانهم من قوله تعالى :

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ (٢) وقوله : وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ (٣) وقوله : إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوهُمْ

= ويشوع يقطع جذعها من تحتها فيسقط هو عنها بما كسبت يداها . قال الله تعالى :

وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُوفٍ قَدْرِيَّةٍ أَكْبِيرَ مَعْجِرٍ مِيبَهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَتَمَكَّرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (ش) .

(١) وقال في محفل حافل بججاج الاقطار - وقد طالبه مصري أزهرى بمحاربة الانكليز والفرنسيس المعتدين على المسلمين ذاكراً عداوتهم لهم - الانكليز والفرنسيس معذرون إذا عادونا لانه لا يجمعنا بهم جنس ولا دين ولا لغة ولا مصلحة ، ولكن المصيبة التي لا عذر لأحد فيها ان المسلمين اصبحوا اعداء انفسهم ، وانا والله لا أخاف الأجانب وإنما أخاف المسلمين ، فلو حاربت الانكليز لما حاربوني إلا يبيح من المسلمين (ر) .

(٢) الحجرات : من الآية ١٠ .

(٣) المائدة : من الآية ٥١ .

وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ^(١) وقوله : فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ^(٢) .

أفبمثل هذا تكون طاعة الله ورسوله ؟ أم بمثله تكون اخوة الايمان وولايته وولاية أهله ؟

أو لمثل هؤلاء يعدد الله العز والنصر والتمكين في الارض ، وهم سعاة بين أيدي الأجانب على ملتهم ووطنهم وقومهم ؟ كلما عاتبهم الانسان على خيانة اعتذروا بعدم إمكان المقاومة ، أو باتقاء ظلم الأجنبي ، أو بارتكاب أخف الضررين ؟ وجميع أعذارهم لا تتكوى على شيء من الحق ، ولقد كانوا قادرين أن يخدموا ملتهم بسيوفهم فان لم يستطيعوا فبأقلامهم ، فان لم يستطيعوا فبالسنتهم ، فان لم يستطيعوا فبقلوبهم ^(٣) ، فأبوا إلا أن يكونوا بطانة للأجانب على قومهم ، وأبوا إلا أن يكونوا رواداً لهم على بلادهم ، وأبوا إلا أن يكونوا مطايااً للأجانب على أوطانهم . وتراهم مع ذلك وافريرين ناعمي الببال ، ممتنعين بالهناء وصفاء العيش ، وهم يأكلون مما باعوا من تراث المسلمين ،

(١) المتعصنة : ٩ .

(٢) الانفال : من الآية ١ .

(٣) اشارة الى حديث « من رأى منك منكرأ فليغيره بيده . فان لم يستطع فبلسانه . فان لم يستطع فبقلبه . وذلك أضعف الايمان » رواه احمد ومسلم واصحاب السنن كلهم وهذا في وجوب تغيير المنكرات بفعلها المسلم فماذا يقال في مقاومة هدم الإسلام من أساسه (ر) .

وينامون مستريحين . مثل هؤلاء ليس لهم وجدان يعذبهم من الداخل ولا نجد من المسلمين من يجروا ان يعذبهم من الخارج (١) .

لم نكن لنطلق الكلام اطلاقاً على العالم الإسلامي في هذا الموضوع ، فإن الأمة الأفغانية مثلاً لا يمكن أحداً ان يخاطب فيها في حب الأجانب علناً ويبقى حياً ، والنجديون لا يوجد فيهم من يجراً أن يمالء الاجانب على قومه ، والمصريون قد ارتقت تربيتهم السياسية كثيراً عن ذي قبل فأصبحت مجاهرة أحدهم بالميل للأجنبي او تفضيل حكم الاجنبي خطراً عليه ، فأما في سائر بلاد الإسلام فمن شاء من المسلمين ان يخلع الرسن ويجاهر بالعصيان لعدو دينه وبلده فلا يخشى شراً ، ولا يحاذر قلقاً ولا أرقاً .

أفلمثل هؤلاء يقول الله تعالى :

وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ
فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ
دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ ، وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا
يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا (٢) .

حاشا لله تعالى ان يكون عنى هؤلاء « المسلمين » الذين يخوفون ملتهم

(١) اما في فلسطين فقد تجرأ الجهاديون اخيراً على تعذيب الحائنين ولقي كثير من هؤلاء جزاءهم الاوفى وجاء الوقت الذي عرف فيه خائن قومه انه (لا عاصم اليوم من أمر الله الا من رحم) فعسى ان يكون في ذلك عظة وعبرة لسائر العالم الاسلامى (ش) .

(٢) النور : ٥٥ .

ويسمعون بين يدي أعدائها ويناصبون إخوانهم العداوة ابتغاء مرضاة الأجانب والحصول على دنيا زائلة وحطام فان ، كيف وقد قرن الايمان بلازمة وهو عمل الصالحات ؟ بنسها شروا به أنفسهم . وكذلك لا يعني الله بهؤلاء المسلمين الذين إن لم يكونوا خاسروا على قومهم ، وسعوا بين أيدي الاجانب في خراب أمتهم ، وأوطأوا مناكبهم لركوب الغريب الطامح ، فانهم اكتفوا من الاسلام بالركوع والسجود ، والاراد والاذكار ، وإطالة السجدة والتلوم في السجدة ، وظنوا ان هذا هو الاسلام ، ولو كان هذا كافياً في اسلام المرء وفوزه في الدنيا والآخرة لما كان القرآن ملآن بالتحريض على الجهاد، والإيثار على النفس ، والصدق والصبر ، ونجدة المؤمن لأخيه ، والعدل والاحسان ، وجميع مكارم الاخلاق . ولو كان هذا كافياً لأجل التحقق بالاسلام لما قال الله تعالى :

قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ أُقْتِرْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (١)

أفمقدر اخونا الشيخ بسيوني عمران او غيره ان يقول ان المسلمين اليوم

(١) راجع تفسير الآية - وهي في سورة التوبة ٢٤ - وما قبلها في ص ٢٢٤ : ٢٤٢

ج ١٠ من تفسير المنار (ر) .

— إلا السادر الأندر والكهريت الأحمر— يفضلون الله ورسوله على آبائهم وأخوانهم
وأزواجهم وتجارتهم وأموالهم ومساكنهم أو يؤثرون حب الله ورسوله— وإنما
حب الله ورسوله إقامة الاسلام — على الجزء اليسير من أموال اقترفوها
وتجارة يخشون كسادهما ؟

لنعمل هذه التجربة ، فبضدها تفتين الأشياء .

الموازنة بين المسامين والنصارى في البذل لنشر الدين :

لنفرض ان مسألة تنصير البربر دخلت في طور النجاح ، وانتدب البابا
الكاثوليكين الذين في العالم لبذل الاموال اللازمة لهذا التحويل الذي تتوخاه
فرنسة في البربر من دين الاسلام الى دين النصرانية ، فكم مليوناً تظن من
الجنميات يدر على المبشرين والرهبان والراهبات لبناء الكنائس والمدارس
والملاجيء والمستشفيات ومراكز الاسعفيات وما اشبه ذلك لاتمام هذا العمل
الذي تضم به الكتلثة ثمانية ملايين من البرابر الى الاربعماية مليون كاثوليكي
الذين في العالم ؟

لا شك ان الجواب يكون : عدة ملايين تجمع في بضعة اشهر . فان قبيل
لبروتستانتين تعالوا فتمد أذنا لكم في تنصير البرابرة فابذلوا في هذه السبيل
ما امكنكم ، فانها تدر حينئذ الملايين بقدر ضعفي ما يدر من الكاثوليكين
وفي مدة اقصر من المدة التي يجمع فيها المال الذي يوجد به هؤلاء .

فلنقل للمسلمين : ان البرابرة صاروا على شفا الخروج من الاسلام ، وان
الاس في هذا الصبوء عن دين الاسلام هو الجهل . فعلمنا ان نرسل اليهم علماء
ووعاظاً ليتفقهوا في الدين ، وأن نبني لهم المساجد والمدارس والكتاتيب
والملاجيء الى غير ذلك من الوسائل التي تمسك بحجزاتهم عن مفارقة الاسلام
والمسلمين .

فكم تظن المبلغ الذي يوجد به المسلمون بعد اللتيا والتي لهذا العمل ؟ لا
أظن أنهم يحدون بما يتجاوز جزءاً من مائة مما يبذله الكاثوليك او
البروتستانت (١) .

فهذه هي حمية المسيحيين على دينهم ، وهذه هي حمية المسلمين .

ومن الناس من يسأل عن اسباب انحطاط المسلمين وقصورهم عن
مباراة سواهم ، فلو تأمل في هذه الفروق في النهضة والحمية لوجد عندها
الجواب الكافي .

ومن اغرب الامور ان نرى الاوروبيين ودعاتهم وتلاميذهم من الشرقيين
بعد هذا كله يهتمون المسلمين بالتعصب الديني وينبذونهم بلقبه ، وينتحلون
لانفسهم التساهل في الدين ! ان هذا والله لعجب لعجاب .

وها أنذا الآن في كتابتي هذه التي معناها الدفاع لا التجاوز ، والاستاذ
الاكبر صاحب المنار ، وعبد الحميد بك سعيد رئيس جمعية الشبان المسلمين
وغيرنا من المدافعين عن حق الاسلام والرجال الذين يبغون منع الاعتداء على
الاسلام وينادون المسلمين لينتبهوا للخطر المهدق بهم - متهمون بالتعصب
الديني ومنبوزون بهذه الكلمة ، لا بين غير المسلمين فقط ، بل بين المسلمين

(١) شاع ان المنبوذين من الهند يريدون فراق مذهب الهنادك وان منهم من شرح الله صدره
للالسلام فأرسل الاستاذ الاكبر شيخ الازهر وقدأ من علماء الشريعة الى الهند ليتحقق هل ثمة أمل
في هداية المنبوذين هؤلاء ام ذاك نفخ في غير ضرر وعلم السلوت في مشارق الارض ومغارها
خبر ارسال هذه البعثة الازهرية الى الهند ولم تتحرك همة واحد منهم الى تخصيص ما يوازي
القطمير لأجل هداية هؤلاء المنبوذين الذين يزيد عددهم على ستين مليوناً . هذا بينا المبالغ التي
يجمعها المسيحيون في كل عام لأجل تغذية التبشير المسيحي في آسيا وافريقية تقدر بعشرين الى
ثلاثين مليون جنيه فهل تظم هذه الأمة ان تجاري تلك الأمة ؟ وبينها كل هذا الفرق (ش) .

الجغرافيين أيضاً - أعني الذين يتباهون بأن سياستهم « لا دينية » وطالما صرحوا بأنهم لا يقيمون للدين وزناً ، وطالما تزلفوا الى المسيحيين بكونهم هم لا يدافعون عن الدين الاسلامي كما يدافع زيد وعمرو... وهؤلاء فئة معروفة يعرفهم الناس وهم يعرفون انفسهم ولو فكر المسيحيون في شأنهم لعلموا انهم ليسوا على شيء وانهم لا يستحقون الاحترام منهم لان الذي يتزلف الى الناس بمثل هذه الطرق حري بأن لا يكون اهلاً للثقة ولا للكرامة ، وما يزين المرء شيء مثل الاستقامة واستواء الباطن والظاهر .

فالمسلم اذاً لا يخلص من لقب « متعصب » إلا اذا سمع ان الفرنسيين يحاولون تنصير البربر فربذلك كأن لم يسمع شيئاً ، وإلا اذا سمع ان الهولانديين نصرروا مائة الف - وقد زعم أحد نواب البرلمان الهولاندي انهم فازوا بتنصير مليون مسلم من مسلمي الجاوى - وهز كتفه قائلاً: انا لا يهمني أكان الجاوي مسلماً ام مسيحياً ... - هنالك « المسلم » يصير « راقياً » ويمد « عصرياً » ويصير محبوباً ويقال فيه كل خير !؟

وأما الاوروبي فله ان يبذل القناطر المقتنطرة على بث الدعاية المسيحية بين المسلمين ، وله ان يحميها بالمدافع والطيارات والدبابات ، وله ان يحول بين المسلمين ودينهم بالذات وبالواسطة ، وله ان يدس كل دسياسة ممكنة لهدم الاسلام في بلاد الاسلام ، وليس عليه حرج في ذلك ، ولا يسلبه هذا العمل صفة « راق » و « متمدن » و « عصري » وأغرب من هذا انه لا يسلبه نعت « مدني » و « لا ديني » و « متساهل » .

وهؤلاء « المسلمون الجغرافيون » برغم هذه الشواهد الباهرة للأعين ، وبرغم ما عملته جمهورية فرنسة « اللا دينية » في قضية البربر لما أرب دينية كاثوليكية ، وبرغم حماية هولاندة لمبشري الانجيل في الجاوى ، وبرغم قرار

الحكومة البلجيكية رسمياً إكمال تنصير اهل الكونغو (١) ، وبرغم منع الإنكليز في الاوغاندا وفي دار السلام - وكذا السودان - من بث الدعاية الاسلامية بين الزنوج ، وبرغم امور كثيرة لا يسعنا الآن شرحها ، لا يزالون يخدمون المسلمين قائلين لهم: ان اوروبة قد رفست الدين برجلها وصارت على خطة لا دينية وبذلك قد اتسق لها الرقي ونجحت ونحن لن نفلح ما دمنا سائرين على خطة اسلامية (٢) .

قد قام بث هذه السفسطة أناس في تركيا ووجدوا من تلقاها بالقبول عدداً كبيراً . وترى أناساً في مصر والشام والعراق وفارس يقولون بها ويكابرون في المحسوس ولا يباليون ، لانهم يجدون على كل الاحوال من الاغرار من يصدقهم .

فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي
الْصُّدُورِ (٣) .

(١) أهل الكونغو ١٢ مليوناً من النفوس كانوا جميعهم فتيشين فلما استولى البلجيكيون على الكونغو قرروا تنصيرهم ورأيت من عدة سنوات برنامج حكومة بلجيكا فاذا من جملة أركانه تنصير أهل الكونغو وبالفعل تنصير من زوج الكونغو نحو من مليون ونصف الى الآن ولما كان المسلمون قد دخلوا الى الكونغو من مدة طويلة فأقبل الأهالي هناك على الاسلام حتى بلغ عدد المسلمين في الكونغو ١٥٠ الف نسمة خشيت بلجيكا انتشار الاسلام في تلك المستعمرة وصارت تمارض نموه فيها وتطرد المسلمين وتضيق عليهم ولم تبال بما في ذلك من الخلل يبدأ الحرية الدينية ولا سمعت لومة لائم (ش) .

(٢) وقد صدقوا لكن بمعنى اننا لن نفلح ما دمنا على هذه الخطة التي نكذب بتسميتها اسلامية وانما انما نفلح اذا قمنا بحق اسلامنا كما يقومون بحق دينهم او أشد (ر) .

(٣) الحج : من الآية ٤٦ .

اهم اسباب تاخر المسلمين

من اعظم اسباب تاخر المسلمين الجهل ، الذي يجعل فيهم من لا يميز بين الخير والخل ، فيقبل السفسطة قضية مسامة ولا يعرف ان يرد عليها .

ومن اعظم اسباب تاخر المسلمين العلم الناقص ، الذي هو اشد خطراً من الجهل البسيط ، لان الجاهل إذا قبيض الله له مرشداً عالماً اطاعه ولم يتفلسف عليه ، فأما صاحب العلم الناقص فهو لا يدري ولا يقنع بأنسه لا يدري ، وكما قيل :

إبتلاؤكم بمجنون خير من ابتلائكم بنصف مجنون ، اقول :

إبتلاؤكم بجاهل ، خير من ابتلائكم بشبه عالم .

ومن أعظم أسباب تاخر المسلمين فساد الاخلاق ، بفقد الفضائل التي حث عليها القرآن ، والعزائم التي حمل عليها سلف هذه الأمة وبها ادركوا ما أدركوه من الفلاح ، والأخلاق في تكوين الأمم فوق المعارف ، والله در شوقي إذ قال :

وَإِنَّمَا الْأُمَّمُ الْأَخْلَاقُ مَا بَقِيَتْ

فَإِنْ هُمْ ذَهَبَتْ أَخْلَاقُهُمْ ذَهَبُوا

ومن اكبر عوامل تقهقر المسلمين فساد أخلاق أمرائهم بنوع خاص، وظن هؤلاء - إلا من رحم ربك - ان الأمة خلقت لهم ان يفعلوا بها ما يشاؤون، وقد رسخ فيهم هذا الفكر حتى إذا حاول محاول ان يقيمهم على الجادة بطشوا به عبدة لغيره .

وجاء العلماء المترلفون لأولئك الامراء ، المتقلبون في نعمائهم ، الضاربون بالملاعق في حلوائهم ، وافقتوا لهم بجواز قتل ذلك الناصح بحجة انه شق عصا الطاعة ، وخرج عن الجماعة .

ولقد عهد الاسلام الى العلماء بتقويم أود الامراء . وكان قديماً في الدول الاسلامية الفاضلة بمثابة المجالس النيابية في هذا العصر، يسيطرون على الأمة ، ويسددون خطوات الملك ، ويرفعون أصواتهم عند طغيان الدولة ، ويهييئون بالخليفة فمن بعده الى الصواب .

وهكذا كانت تستقيم الامور ، لان اكثر أولئك العلماء كانوا متحققين بالزهد ، متحليين بالورع متخليين عن حظوظ الدنيا ، لا يهمهم أغضب الملك الظالم الجبار أم رضي فكان الخلائف والملوك يرهبونهم ، ويخشون مخالفتهم ، لما يعلمون من انقياد العامة لهم ، واعتقاد الامة امامتهم، إلا انه بمرور الايام خلف من بعد هؤلاء خلف اتخذوا العلم مهنة للعيش ، وجعلوا الدين مصيدة للدينيا ، فسوغوا للفاسقين من الامراء اشنع موبقاتهم ، وابعادوا لهم باسم الدين خرق حدود الدين ، هذا والعمامة المساكين نخدعون بعظمة عمائم هؤلاء العلماء ، وعلو مناصبهم ، يظنون قتيامهم صحيحة وآراءهم موافقة للشريعة ، والفساد بذلك يعظم ، ومصالح الأمة تذهب ، والاسلام يتقهقر ، والعدو يعلو ويتنمر ، وكل هذا اثمه في رقاب هؤلاء العلماء (١) .

(١) وفيما هذه المسألة حقها في النار وأهمه مقالة في المجلد التاسع (ص ٣٥٧) عنوانها (حال المسلمين في العالمين . ودعوة للعلماء الى نصيحة الملوك والامراء والسلاطين) انجينا فيها - باللائمة على علماء هذا العصر لتقصيرهم في نصيحة الملوك والامراء ، ويليها آثار عن السلف في ذلك نشرت في عدة اجزاء من هذا المجلد (ر) .

ومن اعظم عوامل تقهقر المسلمين الجبن والهلع ، بعد ان كانوا اشهر الأمم في الشجاعة واحتقار الموت ، يقوم واحدهم للعشرة وربما للمائة من غيرهم ، فالآن اصبحوا الا بعض قبائل منهم يهابون الموت الذي لا يجتمع خوفه مع الاسلام في قلب واحد . ومن الغريب ان الافرنج المعتمدين لا يهابون الموت في اعتدائهم ، هيبة المسلمين اياه في دفاعهم ، وان المسلمين يرون الغايات البعيدة التي يبلغها الافرنج في استحقار الحياة والتهافت على الهلكة في سبيل قوميتهم ووطنهم ، ولا تأخذهم من ذلك العيرة ولا يقولون نحن أولى من هؤلاء باستحقار الحياة ، وقد قال الله تعالى :

وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنْ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ (١) .

وقد انضم الى الجبن والهلع اللذين اصابا المسلمين اليأس والقنوط من رحمة الله ، فمنهم فئات قد وقر في انفسهم ان الافرنج هم الأعلون على كل حال (٢) وانه لا سبيل لمغالبتهم بوجه من الوجوه ، وان كل مقاومة عبث ، وان كل مناهضة خرق في الرأي ، ولم يزل هذا التهميب يزداد ويتخمر في صدور المسلمين أمام الأوروبيين الى ان صار هؤلاء ينصرون بالرعب ، وصار الأقل منهم يقومون لأكثر من المسلمين . وهذا بعكس ما كان في العصر الاول :

يَرَى الْجَبْنَاءَ أَنَّ الْجَبْنَ حَزْمٌ
وَتَلْكَ خَدِيعَةُ الطَّبَعِ اللَّئِيمِ

(١) النساء : من الآية ١٠٤ .

(٢) والله يقول : (ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الاعلون وان كنتم مؤمنين) .

نسي المسلمون الأيام السالفة التي كان فيها المشرون مسلماً لا غير يأتون من (برشلونة) الى (فراكسية) من سواحل فرنسة ويستولون على جبل هناك وبينون به حصناً ويتزايد عددهم حتى يصيروا مئة رجل فيؤسسون هناك امارة تعصف ريجها بجنوبي فرنسة وشمالى ايطالية ، وتهادنها ملوك تلك النواحي وتخطب ولاءها ، وتستولي على رؤوس جبال الألب ، وعلى المعابر التي عليها الطرق الشهيرة بين فرنسة وايطالية ، لا سيما معبر سان برنار الشهير ، وتضطر جميع قوافل الافرنج ان تؤدي للعرب المكوس لاجل المرور ، تتقدم هذه الدولة العربية الصغيرة في بلاد (البيامون) مسافات بعيدة الى ان تبلغ سويسرة وبحيرة (كونستانزه) في قلب أوروبا وتضم القسم العالي من سويسرة الى املاكها وتبقى خمساً وتسعين سنة مستولية على هذه الديار الى أن تتألب الامم الافرنجية عليها ، ولا تزال تناجزها الى ان استأصلتها ، وكانت تلك العصابة العربية يوم انقرضت لا تزيد على الف وخمسمائة رجل^(١) (وقد نشرنا تفصيل خبرها في المجلد ٢٤ من المنار) .

شبهات الجهاد المجنأ وردها :

من السخفاء من يقول نعم قد كان ذلك ، لكن قبل أن يخترع الافرنج آلات القتال الحديثة ، وقبل المدافع والدبابات والطائرات ، وقبل ان يصير الافرنج الى ما صاروا اليه من القوة المبنية على العلم . وهذا القول هو منتهى السخف والسفه والحماسة ، فان لكل عصر علماً وصناعة ومدنية تشاكله ، وقد كانت في القرون الوسطى علوم تشاكلها كما هي العلوم والصناعات والمدنية الحاضرة في هذا العصر . وامور الخلق كلها نسبية ، ولقد كانت في العصر الذي نتكلم عنه آلات قتال ومنجنقات ودبابات ونيران

(١) يحد القاريء تفاصيل هذه الغزوات في كتابنا « غزوات العرب في سويسرة وجنوبي فرنسة وشمالى ايطالية وجزائر البحر المتوسط » المطبوع من خمس سنوات .

مركبة تركيبياً مجهولاً اليوم، وكانت في ذلك الوقت كما هي المدافع والرشاشات وقنابر الديناميت وما أشبه ذلك في هذه الأيام .

على انه ليست الدبابات والطائرات والرشاشات هي التي تبعث العزائم ، وتوقد نيران الحمية في صفوف البشر ، بل الحمية والعزيمة والنجدة هي التي تأتي بالطائرات والدبابات والقنابر . وما هذه إلا مواد صماء لا فرق بينها وبين أي حجر ، فلماذا لا تقدر ان تعمل شيئاً من نفسها ، وإنما الذي يعمل هو الروح ، فساذا هبت أرواح البشر وتحركت عزائمهم فمند ذلك نجد الدبابات والطائرات والرشاشات والقواصات وكل اداة قتال ونزال على طرف النّام .

يقولون : الا ان هذا ينبغي له العلم الحديث ، وهذا العلم مفقود عند المسلمين ، فلذلك أمكن الافرنج ما لم يمكنهم .

(والجواب) ان العلم الحديث ايضاً يتوقف على الفكرة والعزيمة ، ومضى وجدت هاتان وجد العلم الحديث ووجدت الصناعة الحديثة . أفلا ترى ان اليابان الى حد سنة ١٨٦٨ كانوا أمة كسائر الأمم الشرقية الباقية على حالتها القديمة ، فلما أرادوا اللحاق بالأمم العزيزة تعلموا علوم الاوروبيين ، وصنعوا صناعاتهم ، واتسق لهم ذلك في خمسين سنة وكل أمة من أمم الاسلام تريد ان تنهض وتلحق بالاسم العزيزة يمكنها ذلك وتبقى مسلمة متمسكة بدينها ، كما ان اليابانيين تعلموا علوم الاوروبيين كلها وضارعوهم ولم يقصروا في شيء عنهم ولبثوا يابانيين ولبثوا متمسكين بدينهم واوضاعهم . وايضاً فحتى ارادت أمة مسلمة أدوات أو أسلحة حديثة ولم تجدها ؟ ان ملاك الامر هو الارادة فحتى وجدت الارادة وجد الشيء المراد .

فلو ان أمة من أمم الاسلام أرادت أن تتسلح لوجدت السلاح الحديث اللازم بأنواعه وأشكاله من ثاني يوم . ولكن اقتناء السلاح ينبغي له سخاء

بالاموال ، وهم لا يريدون ان يبذلوا ، ولا ان يقتدوا بالافرنج واليابان في البذل ، بل يريدون النصر بدون سلاح وعتاد ، أو السلاح والعتاد بدون بذل أموال ، وإذا تغلب العدو عليهم من بعد ذلك صاحوا قائلين : أين المواعيد التي وعدنا اياها القرآن في قوله :

وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (١) .

كان القرآن ضمن للمؤمنين النصر بدون عمل وبلا كسب ولا جهاد بالاموال والانسفس ، بل بمجرد قولنا اننا مسلمون ، او بمجرد الدعاء والتسبيح؟ وأغرب من ذلك بمجرد الاستغاثة بالاولياء ، فأصبح الكثير من المسلمين وهم عزل من السلاح الحديث وهم غير مجهزين بالمعلم اللازم لاستعماله لا يقومون للاقليل من الافرنج المسلحين المجهزين ، وصاروا إذا التقى الجمعان تدور الدائرة في اغلب الاحيان على المسلمين . فتوالى هذا الأمر عليهم مدة طويلة الى ان فقدوا كل ثقة بنفوسهم ، واستولى عليهم القنوط ، ودب فيهم الرعب ، وألقوا بأنفسهم الى المدر وبعد ان كانوا مسلمين ، صاروا مستسلمين ، وقد ذهلوا عن قوله تعالى :

وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ .
 إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ
 نَدَاوُهَا بَيْنَ النَّاسِ (٢) .

(١) الروم : ٤٧ .

(٢) آل عمران : ١٣٩ ومن الآية ١٤٠ .

ونسوا أنه لا يجوز ان يتطرق اليأس الى قلب احد لا عقلا ولا شرعاً ،
ولا سياً المسلم الذي يخبره دينه بأن اليأس هو الكفر بعينه . وغفلوا عن
قوله تعالى في سلفهم :

الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ
فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَأَنْقَلَبُوا
بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ . (الآيات^(١))

فتجدهم إذا استنهضتهم لمعاونة قوم منهم يقاتلون دولة اجنبية تريد
لتمحوهم كان اول جواب لهم : أية فائدة من بذل أموالنا في هذا السبيل
وتلك الدولة غالبية لا محالة ؟ ولو تأملوا لوجدوا ان الاستسلام لا يزيدهم إلا
وبلاء ، ولا يزيد العذر إلا استبداداً وجبروتاً : سنة الله في خلقه . ولو
فكروا قليلاً لرأوا ان هذا الشح بالمال على اخوانهم الذين في موطن الجهاد لم
يكن توفيراً وإنما كان هو الفقر بعينه ، لان الأمة المستضعفة لا تعود حرة في
تجارتها واقتصادياتها ، بل يتص العذر الغالب عليها كل ما فيه علالة رطوبة
في ارضها ، ولا يترك للأمة المستضعفة إلا عظاماً يتمششونها ، من قبيل
« قوت لا يموت » وكثيراً ما تحصل مساعب ويموتون جوعاً كما يقع كثيراً في
جزائر الغرب والهند وغيرهما ، ترى الجماعات واقعة في الهند ولا يموت
منها ولا انكليزي و تراها تشتد في الجزائر ولا يموت بها إلا المسلم^(٢) . وما

(١) الآيتان : ١٧٣ و ١٧٤ من آل عمران .

(٢) ضمن المسلمين بالأموال على القضايا العامة هو الذي شل حركتهم السياسية وقت في عضد
قوميتهم الى ان صارت الامم الغالبة على أمرهم لا تحسب لهم أذننى حساب ولو كانت تحسب لهم
حساباً ما كان الفرنسيين انتزعوا منهم أملاكهم في الجزائر حتى صاره ٧ في المائة منها ملكاً =

السبب في ذلك إلا أن الاجانب قد استأفروا بخيرات البلاد ولم يتركوا للمسلمين الا الفقر . فقام المسلمون اليوم يعتذرون عن عدم بذل الاموال لمساعدة اخوانهم بعدم وجودها ، وهذا صحيح الى حد محدود ، وذلك انهم مجلوا بها في الاول فجنوا من بخلهم على الجهاد الذل والخنوع اولاً ، والفقر

= للفرنسيس وصار ثلث اراضي تونس ملكاً لخمسين الف افرنسي مع ان الاهالي هم مليونان ونصف مليون مسلم يملكون الثلثين لا اكثر ، وايضاً لما كانت فرنسا ابتزت اهالي المغرب الأقصى ثمانمائة الف هكتار وسلتها للمستعمرين الافرنسيين ، ولما كانت فرنسا تنفق ثلاثة ارباع ميزانية المغرب المالية على ١٩٠ الف افرنسي وتنفق الربع الباقي على مسلمي المغرب مع انهم سبعة ملايين نسمة ومع ان ٨٠ في المائة من ميزانية المغرب هي من اموال المسلمين كما اثبتنا ذلك بالارقام نقلاً عن جريدة الحماية الرسمية التي لا يقدر الفرنسيون ان يكابروا فيها وهي ميزانية عدة سنين لا سنة واحدة وقد نقلنا تلك الميزانيات كلها عن جريدة الحماية الرسمية المطبوعة في الرباط الى مجلتنا « لافاسيون آراب » ودعونا الناس الى تأمل هذا الحيف الفظيع الواقع على المسلمين الذين يتمتع الافرنسي الواحد من ميزانيتهم اكثر مما يتمتع به ستون مسلماً .

وأغرب من ذلك ان الواحد من يهود المغرب فضلاً عن الفرنسيين يستفيد من الميزانية المغربية اكثر من اربعين مسلماً واغرب منه انه من هذه الميزانية التي اربعة اقسامها من جيوب المسلمين يأخذ البشرون والقسوس دعاة النصرانية مئات الوف من الفرنكات لاجل بث المسيحية بين البربر المسلمين وهذا على نسق اعطاء مبشري النصرانية في السودان المصري إعانات من اموال المسلمين ، فلو ان هوان المسلمين على دول الاستعمار وكون هذه لا تقيم وزناً ما كانوا يستخفون بهم الى هذا الحد الأقصى ولا كان عند الفرنسيين الاربعون مسلماً يهودي واحد ولا الستون مسلماً بافرنسي واحد ، ولقد تحديناهم مراراً ان يجيبونا عن هذا الظلم الفاحش فما اجابونا بغير الطعن والقذف والتهمة لنا بعداوة فرنسا كأن الانسان لا يمكن ان يكون صديقاً لفرنسا الا اذا أهدر في سبيلها جميع حقوق قومه وهذا من اغرب الغرائب .

ولو تأملوا قليلاً لعلموا ان نصحننا لهم باضفاف المسلمين هو نصح عائد الى مصلحتهم وان العدو لا يشير عليهم باستجلاب قلوب المسلمين ابداً وإنما يريد حماية بين الفريقين الى ما شاء الله (ش) .

والجوع ثانياً . فان من سنن الله في أرضه ان الذل يردفه الفقر ، وان العز
يردغه الثراء ، والمثل العربي يقول : من عز بز ، والشاعر العربي
الايادي يقول :

لَا تَذْخِرُوا الْمَالَ لِلْأَعْدَاءِ إِنَّهُمْ
إِنْ يَظْهَرُوا يَأْخُذُوكُمْ وَالْتِلَادَ مَعَا
هَيْبَاتٍ لَا خَيْرَ فِي مَالٍ وَفِي نِعَمٍ
قَدْ أَحْتَفَظْتُمْ بِهَا إِنْ أَنْفَكُمْ جَدَعَا

والمتنبي يقول :

فَلَا مَجْدَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَالُهُ
وَلَا مَالَ فِي الدُّنْيَا لِمَنْ قَلَّ مَجْدُهُ

فالمسلمون عز عليهم المال ففقدوه ، وعزت عليهم الحياة ففقدوها ، وأبى
الله إلا تصديق كلام النبي الموحى اليه حيث يقول : « يوشك ان تداعى عليكم
الأمم كما تداعى الأكلة على قصصها » قالوا أو من قلة فينا يومئذ يا رسول
الله ؟ قال : « لا ولكنكم غثاء كغثاء السيل يجعل الوهن في قلوبكم
وينزع من قلوب أعدائكم ، من حبكم الدنيا وكراهيتكم الموت » .

هذا الحديث رواه لي الشيخ محمد بن جعفر الكتاني الفاسي رحمه الله يوم
لقيته في المدينة المنورة منذ خمس وعشرين سنة ، ثم قرأته في الكتب
واستشهدت به في مقدمة حاضرم العالم الاسلامي ، وأنفاظه تختلف في رواية

عن رواية . فالاستاذ صاحب المنار امتع الله بطول حياته هو الأدرى بأصح رواياته ^(١) ومعناه ظاهر وهو : أن المسلمين يأتي عليهم يوم يصيرون فيه

(١) الحديث رواه ابو داود في سننه والبيهقي في دلائل النبوة عن ثوبان مرفوعاً بلافظ « يوشك ان تداعى عليكم الامم كما تداعى الأكلة الى قصعتها » فقال قائل ومن قلة نحن يومئذ ؟ قال (ص) « بل انتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، وسينزعن الله من صدور عدوكم المهابة منكم . وليقذفن في قلوبكم الوهن » - قال قائل : يا رسول الله وما الوهن قال « حب الدنيا وكرهية الموت » .

قوله (ص) « تداعى » اصله تتداعى أي تجتمع ويدعو بعضها بعضاً لسلب ملككم كما تتداعى الأكلة وهي جمع آكل - كالفعل جمع فاعل - الى قصة الطعام والغناء بالضم ما يحمله السيل ويلقيه من الزبد والعيذان ونحوها ويضرب مثلاً لما لا قيمة له ولا فائدة، والوهن بالنون الضعف، وإنما سأله السائل عن سببه فأجابته (ص) بأن سببه حب الحياة الدنيا ولذاتها الخسيسة وإيثارها على الجهاد في الدفاع عن الحقيقة وإعلاء كلمة الله ، وكرهية الموت ولو في سبيل الحق حرصاً على هذه الحياة الخسيسة .

وقد اوردت هذا الحديث في تفسير قوله تعالى : (الانعام : آية ٦٥) .

قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ سِيعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ .

وأوردت قبله حديث ثوبان الآخر الذي رواه مسلم في صحيحه قال رسول الله (ص) « ان الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها ، وان امتي سيلغ ملكها ما زوى لي منها ، واعطيت الكثرين الأحمر والأبيض ، واني سألت ربي لأمتي ان لا يهلكها بسنة عامية ، وان لا يسلط عليها عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم (أي ملكهم وسلطانهم ومقر قوتهم) وان ربي قال لي : يا محمد اذا قضيت قضاء فانه لا يرد ، واني اعطيتك لأمتك ان لا اهلكهم بسنة عامية (أي فحط) وان لا اسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها - أو قال من بين اقطارها - حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي =

ومن المعلوم ان الافراط في حب الدنيا يحرم الانسان التمتع بها وان الغلو في

= في قلوبهم الاجنبي المتغلب انتهى بأن أوجد في نفوسهم هذه الحالة الغريبة التي لم أجد لها شبيهاً في التاريخ الا ما كان منهم يوم زحف التتار المغوليين الى بلاد الاسلام ونسفوا تلك الحضارات الزاهرة التي كانت في تركستان وإيران والعراق وذبحوا الملايين من اهلها ذبح الشياه ودمروا بغداد دار الخلافة وأهلكوا الخليفة المستعصم العباسي تحت أرجل الفيلة وجعلوا من جماجم القتلة آكاماً عالية فوصل الرعب بقلوب المسلمين الى ان صار المغولي الواحد يدخل على المائة منهم فيقتلهم جميعاً وأسلحتهم في أيديهم ولا تحدثهم نفوسهم بأدنى مقاومة ولا يقال لمثل هذا انه مجرد انكسار قوى معنوية بل هو ابعاد مدى من هذا بكثير فان انكسار القوى المعنوية لا يسلب المغلوب كل آثار النشاط للمقاومة وإنما كان ذلك مرضاً زاغت به الطبائع البشرية عن مركزها وعمتها استولى على العقول وجردتها من خواص الادراك . وقد حدث أحد المؤرخين برواية غريبة عن رجل شهد تلك الوقائع بمينه فقال ما معناه : فورت من التتار فساقني القدر الى بيت وجدت فيه ثمانية عشر رجلاً كلهم تخبأوا فيه لطمهم ينجون من الموت فبينما نحن جالسون إذ دخل علينا احد التتار فرآنا جميعاً وعلى وجوهنا غبرة الموت ولم يكن معه سلاح يقتلنا به فقال لنا : ابقوا هنا حتى آتي بسكين وأذبحكم ومضى ليأتي بالسكين . فلما ذهب قلت للجماعة : ماذا تنتظرون ؟ قالوا : لا تنتظر شيئاً سوى الموت . فقلت لهم : كيف تنتظر الموت من يد رجل واحد ونحن عصابة ١٩ رجلاً ؟ قالوا : ماذا تريد أن نصنع ؟ قلت : نقتله . قالوا : لا تمتد ايدينا اليه لأننا نخاف . قلت : مم تخافون ؟ ان كان خوفكم من الموت فهو قاتلكم على كل حال . قال : وما زلت أشجعهم الى ان اقتنع بكلامي اثنان منهم لا غير . فلما رجع المغولي وبيده السكين الذي يريد ان يقتلنا به هجمنا عليه نحن الثلاثة ونزعنا السكين من يده وقتلناه به وخرجنا ونجونا . هذا وبقي المسلمون في رعب من التتار غير ممكن التعليل الى ان خرجت اليهم العساكر المصرية في زمن الملك قطز ، قتلقى الجمعان في عين جالوت من فلسطين وانتهزم التتار هزيمة شتاء ثابت بعدها عزائم المسلمين اليهم واخذوا يفتكون بالتتار وصار هؤلاء عندهم كسائر الناس ولو لم يدخل التتار في الاسلام لكان المسلمون أبادوهم .

وخلاصة القول ان المسلمين كلما آثروا السلامة ازدادوا موتاً وكلما احتقروا الحياة ازدادوا حياة والى هذا أشار الله تعالى في كتابه الكريم حين يقول :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي =

المحافظة على الحياة تكون عاقبته زيادة التعرض للهلاك (١) هذه هي من سنن الله في خلقه او من النواميس الطبيعية كما يقال في هذا العصر فالقرآن يأمر المسلم بأن يحتقر الحياة والمال وكل عزيز في سبيل الله، ويأمر المسلم ان يثبت ولا ييأس ، وان يصبر ولا يتزلزل مهما أصيب وتراه يقول :

وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ
الصَّابِرِينَ (٢) .

هكذا يريد الله ليكون المسلمون ، فان لم يكرنوا هكذا بصريح نص القرآن ، فكيف يستنجزون الله عداته بالنصر والتمكين والسعادة والتأمين ؟

== سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَ قَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْنِمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا
مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ النَّحْيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ .
إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ
وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (ش) .

(١) ان الله تعالى يقول :

وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ .

أي ان عدم اتفانكم في سبيل الله هو التهلكة بعينها . وقد اصابت المسلمين تهلكة عدم الاتفاق وصدق فيهم ما حذرهم الله منه (ش) .

(٢) آل عمران : ١٤٦ .

ضياع الاسلام بين الجامدين والجاحدين :

ومن اكبر عوامل انحطاط المسلمين المجدود على القديم ، فكما ان آفة الاسلام هي الفئة التي تريد ان تلغي كل شيء قديم ، بدون نظر فيما هو ضار منه او نافع ، كذلك آفة الاسلام هي الفئة الجامدة التي لا تريد ان تغير شيئاً ، ولا ترضى بادخال اقل تعديل على اصول التعليم الاسلامي ظناً منهم بان الاقتداء بالكفار كفر ، وان نظام التعليم الحديث من وضع الكفار .

فقد اضاع الاسلام جاحد وجامد .

أما الجاحد فهو الذي يأبى إلا أن يفرنج المسلمين وسائر الشرقيين ويخرجهم عن جميع مقوماتهم ومشخصاتهم ، ويحملهم على إنكار ماضيهم ، ويجعلهم اشبه بالجزء الكيماوي الذي يدخل في تركيب جسم آخر كان بعيداً فيذوب فيه ويفقد هويته . وهذا الميل في النفس الى انكار الانسان لماضيه واعترافه بأن آباءه كانوا سافلين ، وانه هو يريد ان يبرأ منهم لا يصدر إلا عن الفسل الخسيس ، الوضيع النفس ، أو عن الذي يشعر أنه في وسط قومه دنيء الأصل ، فيسعى هو في انكار اصل أمته بأسرها لأنه يعلم نفسه منها بمكان خسيس ليس له نصيب من تلك الأصالة ، وهو مخالف لسنن الكون الطبيعية التي جعلت في كل أمة ميلاً طبيعياً للاحتفاظ بمقوماتها ومشخصاتها من لغة وعقيدة وعادة وطعام وشراب وسكنى وغير ذلك إلا ما ثبت ضرره (١) .

محافظة الشعوب الافرنجية على قوميتها :

فلننظر الى اوروبة - لأنها هي اليوم المثل الأعلى في ذلك - فنجد كل

(١) قال المستر شميرلين ناظر خارجية انكلترا سابقاً: نحن الانكليز أمة تقليدية محافظة على القديم لا نرضى بتبديل شيء من اوضاعنا الا اذا ثبت ضرره ولم يبق مناص من تغييره (ش) .

أمة فيها تأبى ان تندمج في أمة أخرى. فالانكليز يريدون ان يبقوا انكليزاً، والافرنسيس يريدون ان يبقوا افرنسيساً ، والالمان لا يريدون ان يكونوا إلا الماناً ، والاطليان لا يرضون أن يكونوا إلا طلياناً، والروس قصارى مهم أن يكونوا روساً ، وهلم جراً .

ومما يزيد هذا المثال تأثيراً في النفس ان الايرلنديين مثلاً أمة صغيرة مجاورة للانكليز وقد بذل هؤلاء جميع ما يتصوره العقل من الجهود ليدمجهم في سوادهم مدة تزيد عن سبعمائة سنة ، فأبوا أن يصيروا انكليزاً ولبثوا ايرلنديين بلسانهم وعقيدتهم واذواقهم وعاداتهم .

وفي فرنسة نفسها تأبى أمة « البريتون » إلا أن تحافظ على أصلها . وفي جنوبي فرنسة جيل يقال لهم « الباشكنس » احتفظوا بقوميتهم تجاه القوط ، ثم تجاه العرب ، ثم تجاه الاسبان ، ثم تجاه الفرنسيس ، وجميعهم مليون نسمة . وهم لا يزالون على لغتهم وزيمهم وعاداتهم وجميع اوضاعهم .

والفلمنك يابون أن يجعلوا اللغة الافرنسية لغتهم والثقافة الافرنسية ثقافتهم ، ولم يزالوا يصيحوون في بلجيكا حتى اضطرت دولة بلجيكا الى الاعتراف بلغتهم لغة رسمية .

وفي سويسرة ثلاثة أقسام : القسم الالمانى وهو مليونان وثمانمائة الف والقسم المتكلم بالاطليانية وهو اكثر قليلاً من مائتي الف ، والقسم المتكلم باللغة الفرترسية وكل قسم منها محافظ على لغته وقوانينه ومنازعه مع انهم كلهم متحدون في مصالحهم السياسية وهم يعيشون في مملكة واحدة .

وان الداغرك وبلاد الاسكنديناف وهولاندة فروع من الشجرة الالمانية لا مرأى في ذلك ، لكنهم لا يريدون الاندماج في الالمان ولا العدول عن قومياتهم . وبقي « التشيك » مثنين من السنين تحت حكم الالمان ، بقوا

تشيكيا ، واستأنفوا بعد الحرب العامة استقلالهم السياسي ، بعد ان حفظوا
لسانهم واستقلالهم الجنسي مدة خمسة قرون .

وقد هذب الألمان أمة المجر وعلوم ورفقهم ولكنهم لم يتمكنوا من
ادماجهم في الألمانية ، فتجدم أحرص الأمم على لغتهم المفولية الاصلية وعلى
قوميتهم المجرية .

ولبثت الروسية العظيمة من مائتين الى ثلاثمائة سنة تحاول ادخال بولونية
في الجنس الروسي وحمل البولونيين على نسيان قوميتهم الخاصة بحجة ان العرق
السلافي يجمع بين البولونيين والروس ، ففشلت جميع مساعيها في ادماج
البولونيين فيها وعاد هؤلاء بعد الحرب العامة أمة مستقلة في كل شيء . وذلك
لأنهم لم يتخلوا طرفة عين عن قوميتهم .

وليس من العجيب ان لا يريد أمة عددها ٣٠ مليوناً الاندماج في غيرها ،
ولكن الاستوانيين وهم مليونان فقط انفصلوا عن الروسية ولم يقبلوا الاندماج
فيها وأحبوا استقلالهم ولسانهم المفولي الأصل وجعلوا له حروفاً هجائية .
ومثلهم أهالي فنلاندة المنفصلون عن الروسية أيضاً .

وقد خابت مساعي الروس في إدماج الليتوانيين من هذه الأمم البلطيقية
في الجنس الروسي ، وانفضوا بعد الحرب العامة أمة مستقلة كما كانوا مستقلين
قومياً ، وجميعهم أربعة ملايين . وأقل منهم جيرانهم الليتونيون (١) الذين هم
مليونان لا غير ، ومع هذا قد انفصلوا بعد الحرب وأسسوا جمهورية كسائر
الجمهوريات البلطيقية لأنهم من الأصل لبثوا محافظين على لغتهم وجنسهم .

(١) ليتوانيا هي غير ليتوانيا وكلتاها من الأمم التي انصلت عن الروسية بعد الحرب العامة
لاختلاف جنسها عن جنس الروس (ش) .

وقد عجز الروس من جهة كما عجز الالمان من جهة اخرى عن ادخال هذه
الأقوام في تراكيبهم القومية العظيمة لان كل شعب مها كان صغيراً لا يرضى
بانكار أصله ولا بالنزول عن استقلاله الجنسي .

وقد حفظ الكرواتيون استقلالهم الجنسي مع إحاطة أمتين كبيرتين بهم
هم اللاتين والجرمان .

وحفظ الصربيون استقلالهم الجنسي مع سيادة الترك عليهم منذ قرون .

ولم يزل الأرتاؤوط أرتاؤوطاً منذ عهد لا يعرف بدؤه وهم بين أمتين
كبيرتين اليونان والصقالبة أي السلاف !

وكذلك البلغار أبوا إلا أن يبقوا بلغاراً فيما بين الروم والسلاف واللاتين.
ثم جامهم الترك فتعلموا التركية لكنهم بقوا بلغاراً .

ولا أريد ان اخرج في الاستشهاد عن اوروبه لأنى ان خرجت عن
اوروبه قالت تلك الفئة الجاحدة : نحن لا نريد ان نجعل قدوة لنا أمماً
متأخرة مثلنا .

فالأمم التي استشهدنا الآن بها كلها اوروبية ، وكلها متعلمة راقية ، وكلها
ذوات بلدان ممدنة منظمة ؛ وكلها عندها الجامعات والأكاديميات والجمعيات
العلمية والجيوش والأساطيل الخ ..

العبرة للعرب وسائر المسلمين برقي اليابانيين :

ولكنني اخرج من اوروبه الى اليابان فقط لأن رقي اليابان يضارع الرقي
الاوروبي وقد تم لليابان كما تم رقي اوروبه للاوروبين أي في ضمن دائرة
قوميتهم ولسانهم وآدابهم وحرثهم ودينهم وشعائهم ومشاعرهم وكل
شيء لهم .

فأنقل الى القراء العرب فقرة من رسالة طويلة جاءت من مراسل اوروبي سائح في اليابان وظهرت في جريدة « جرنال دوجنيف » بتاريخ ٢٠ اكتوبر (١٩٣١) فانه يقول :

« ان الياباني يحب الفن قبل كل شيء ، وإن رأيته ساعياً في كسب المال فلأجل ان يلذذ بالمسال اهواه المنصرفه الى الحسن والجمال . وقد انتقش في صفحة نفسه الشعور القومي الشديد عدا الميل الى الجمال ، لأنه يفتخر بكون اليابان في مدة ستين سنة فقط صارت من طور أمة في القرون الوسطى اقطاعية الحكم الى أمة عظيمة من أعظم الأمم ، وبما لا ريب فيه ان الديانة اليابانية هي ذات دور عظيم في سياسة اليابان (ليتأمل القارئ) وهي في الحقيقة فلسفة مبنية على الاعتراف بكل ما تركه القدماء لسلائهم . فالياباني العصري قد ائتلف مع جميع احتياجات الحياة العصرية ، لكن مع حفظ الميل الدائم الى الرجوع الى ماضيه ومع التمسك الشديد بقوميته ، غير محيب نداء التفرنج (وفي الأصل التفرب Occidentalisme) الذي لا يريد الياباني ان يأخذ منه إلا ما هو ضروري له لأجل مصارعة سائر الامم بنجاح ، ولا شك ان هذا مثال فريد في تاريخ أمم الشرق الاقصى . »

ثم يقول :

« كان اليابانيون يكرهون الاسفار الى البلدان البعيدة ، ويحظرون دخول الاجانب الى بلادهم ، ولكن هذا المنع قد ارتفع بعد النهضة العصرية ، وتلاقت اليابان ما فات بشكل مدهش . والنتائج هي أمامنا إلا أن الماضي لا يزال عند اليابانيين مقدساً معظماً في جميع طبقاتهم لانه في هذا الماضي المقدس يحد اليابانيون جميع شعورهم بقيمتهم الحاضرة ، فتراهم يكافحون بوسائل المدنية الحديثة التامة التي لا سبيل الى الحياة بدونها في أيامنا هذه ، لكن ينبذون كل « تفرب » بمجرد ما يحدون أنفسهم في غنى عنه ، ويعودون مع اللذة الى شعورهم القومي الخالص الذي به يعتقدون انهم الأعلون . »

« وهناك هياكل « شنتو » ومعابد « زن » والهياكل البوذية وهي
مكرمة معظمة مخدومة بأشد ما يمكن من الحماسة الدينية والايان الثابت كما
كانت منذ قرون . والحق أن هذا الاحترام الشديد الذي يشعر به اليابانيون
لقديهم ولعבודاتهم هو الذي قام عندهم حصناً منيعاً دون المبادئ الشعبية،
والافكار الشيوعية المضرّة » .

ومنذ بضع سنوات ظهر في فرنسا تأليف جديد عن اليابان المركيز
(لا مازليير La Mazelière) قد اطنبت الجرائد في وصفه ونشرت عنه
جريدة (اللديبا) مقالاً رناناً ، فنحن نوصي القراء الذين يهمهم ان يعرفوا
كيفية ارتقاء اليابان - وهو موضوع في غاية الجلالة لما فيه من الاستنتاج
لسائر بلاد الشرق - بمطالعة هذا الكتاب الذي لا يمكن ان ينسب الى مؤلفه
التعصب لليابان ، على اني رأيت في الجملة مطابقاً لتواريخ ألفها علماء يابانيون
متخصصون في التاريخ . وهذه التواريخ مترجمة من اليابانية الى الافرنسية .
ولا بد لي في هذه العجالة من نقل بعض فقر من تاريخ لامازليير المذكور .
قال في اثناء الكلام على تمدن اليابان العصري وخروج هذه الامة من عزلتها
القديمة ما يلي :

« فبدأت اليابان تستعير من اوروبا وامريكا قسماً من مدينتها المادية ،
ومن نظامها العسكري ، ومن مباحث تعليمها العام ، ومن سياستها المالية ،
فكان المجددون يجتهدون في ان يقتبسوا من كل شعب ما يروونه الاحسن
عنده ، فكان ذلك مشروع تجديد وهدم واعادة بناء ، وظهرت آثار ذلك
في جميع مناحي الحياة اليابانية » .

ثم تكلم على الحرب اليابانية الصينية ، وانتهى الى قوله الذي نترجمه
ترجمة حرفية :

« ان ظفر اليابان بالصين لم يثبت علو الافكار والمبادئ العالمية التي

اخذتها اليابان عن الغرب وكفى ، بل أثبتت أمراً آخر وهو ان شعباً آسيوياً بمجرد ارادته وعزيمته عرف ان يختار ما رآه الاصلح له من مدينة الغرب (تأمل جيداً) مع الاحتفاظ باستقلاله وقوميته وعقليته وآدابه وثقافته، اهـ.

وقبلاً كنت نشرت في الجرائد - وما نشرته لم يكن إلا نقطة من غدیر - خلاصة الحفلات التي اقامها اليابانيون لتتويج عاهلهم منذ سنتين وكيف استمرت مراسم هذا الاحتفال مدة شهر ، وكانت بأجمعها دينية ، وكيف ان الميكادو هو كاهن الامة الاعظم ، وكيف انه من سلالة الآلهة (الشمس) وكيف اغتسل في الحلم المقدس المحفوظ من ألفي سنة ، وكيف أكل مع الآلهة الارز المقدس الذي زرعه للدولة تحت اشراف الكهنة حتى يكون لهم القدسية لا شبهة فيه ، وكيف كان ثمة في الحفل ستاية ألف ياباني وكلهم يهتفون ليحي الميكادو عشرة آلاف سنة الى غير ذلك .



لماذا لا نسمي اليابان وأوروبا رجعية بتنديهما

فلماذا ، يا ليت شعري ، تتقدم اليابان هذا التقدم السريع المدهش وتصير هذه الأمة أمة عصرية يضرب برقبها المثل وهي تضرب بأعراقها الى عقائد وعادات ومنازع مضى عليها ألفا سنة ، ويكون امبراطورها هو كاهنها الاعظم ، ولا يقال عنها (رجعية) و (مرتجعة) و (ارتجاعية) ومتأخرة ومتقهرة (فان كانت اليابان رجعية فرحى بالرجعية) .

ولماذا كان ملك انكلترا وامبراطور الهند السيد على ٤٥٠ مليون آدمي في الارض من البيض والسمر والصفير والحمر والسود هو رئيس الكنيسة الانكليكانية ومجالسه النيابية تبث في جلسات عديدة في قضية الخبز والحمر هل يستحيلان بمجرد تقديس القسيس الى جسد المسيح ودمه فعلا دون أدنى شك أم ذلك قبيل الرمز والتمثيل (١) ؟ ولا يقال عنه انه (رجعي) ولا يقال

(١) لم يحدث التاريخ عن مسألة من مسائل انكلترا الداخلية اخذت في الأهمية الدور الذي اخذته قضية «الأفخاريسستا» وهي قضية تحول الخبز والحمر الى جسد المسيح . وأصل هذه العقيدة ما رواه الانجيل من ان السيد المسيح عليه السلام قبل صعوده الى السماء تعشى مع تلاميذه وودعهم ، وبينما هو على المائدة تناول لقمة من الخبز وقال: كلوا هذا هو جسدي . وشرب جرعة من الخمر وقال : اشربوا هو ذا دمي . فتكونت من هذه الكلمات في النصرانية عقيدة معناها =

عن دولته العظمى أنها (متأخرة) أو (متقهقرة) فان كانت انكثرة بعد هذا متقهقرة فيما حبذا (التقهقر) .

ولماذا كانت القارة الاوروبية كلها مسيحية مفتخرة بمسيحيتها ، تباها

= ان الخبز والخمر يستحيلان الى جسد الرب تماماً وحقيقة لا مجازاً ، ولما كان القسيس عندهم هو خليفة المسيح كان لا بد له كل يوم عند التقديس في الكنيسة أن يتناول لقمة من الخبز ويشرب رشفة من الخمر وهو يتلفظ بنفس الكلمات التي تفوه بها السيد المسيح عليه السلام في أثناء عشائه مع الحواريين. فمضى فعل ذلك تحول هذا الخبز وهذا الخمر الى جسد الرب حقيقة لا مجازاً، ولذلك يوضع هذا الخبز ويسمونه القربان في 'حق ثمين فوق المذبح من الكنيسة ويسجدون له وذلك باعتبار ان هذا القربان هو الإله نفسه، ويسمون وجود الإله فيه « بالحضور الحقيقي » وبالفرنسية *Présence réelle* وهذا من اعظم الأسرار المقدسة عندهم. وإذا اشرف المريض على الموت جاء القسيس وتلقى منه الاعتراف بذنوبه وتاوله هذا القربان فقبل أنه ذهب الى الآخرة متزوداً الأسرار الإلهية . وقد كانت هذه العقيدة هي عقيدة المسيحيين جميعاً ولا تزال عقيدة اكثرهم الى اليوم الا انه جرى الاصلاح البروتستانتي تغير الاعتقاد عند اتباعه بقضية الحضور الحقيقي وباستحالة الخبز والخمر الذين يقدس عليها القسيس الى جسد الرب ودمه حقيقة لا مجازاً . وقال البروتستانتيون ان هذا مجاز لا حقيقة وانه مجرد رمز وتذكير وعدلوا عن وضع القربان فوق المذبح والسجود له باعتبار انه هو الإله بذاته وصاروا في كنائس البروتستانت يحملون هذا القربان في تجويف خاص به من الحائط ولكن الكنيسة الانكليكانية أي الكنيسة العليا في انكلترة لم يتفق رأيا في قضية القربان فعزب اليمين منها كان باقياً على عقيدته الاصلية وهي ان الخبز والخمر يستحيلان بتقديس الكاهن الى جسد الرب حقيقة لا مجازاً. وحزب الوسط مع حزب اليسار كانا يقولان ان كلمات السيد المسيح هذه لم تكن إلا رمزاً وأنه لا يمكن ان يتحول الخبز والخمر تحت تقديس الكاهن الى جسد الرب ودمه واعتمدوا في رفض العقيدة الكاثوليكية على (كتاب الصلاة) الذي هو دستور الكنيسة الانكليكانية وهو كتاب وضعه بروتستانتيو الانكليز لمذهبهم يوم انشقوا عن الكنيسة الرومانية .

ولما كانت هذه المسألة مسألة خلافية بين اتباع الكنيسة الانكليكانية وقد عمل فيها كل فريق برأيه وخيف فيها من انشقاق عام أمرت الحكومة البريطانية بتأليف مجمع من الأساقفة تحت =

بذلك في كل فرصة ، متحدة في هذا الأمر على ما بينها من عداوات
ومنافسات ، ولا ننبهدها حتى بقولنا (رجمية) و (ارتجاعية) والحال ان
الديانة التي تدن بها اوروبة عمرها ١٩ قرناً .

وهذا عهد يصح أن يقال عنه قديم (وقديم جداً) وهؤلاء اليهود مهما

= وثاسة إمامهم الاكبر رئيس أساقفة كنتربري لأجل التدقيق في هذه المشكلة وحلها على أحد
الوجهين . فانهقد المجمع وذلك منذ أربعين سنة ولم يوفق الى حل يرضي الفريقين وأخيراً ألحت
الحكومة على هؤلاء الأساقفة بأن يبتوا في القضية ان لم يكن بالاجماع فبأكثرية الآراء فحكوا
بالأكثرية وخالف في الحكم ستة من المطارين وذلك بأن الحزب والحرر يستحيلان في قداس الكاهن
الى جسد المسيح ودمه وعليه تجب عبادتها والسجود لها ووضعها في أعلى المذبح لا في كوة حائط
الكنيسة . وبالاختصار رجع أكثر المطارين في هذه المسألة الى العقيدة البابوية ، ولما كان القانون
الأساسي لبريطانية العظمى يوجب أن يكون القول الفصل في جميع هذه القضايا الدينية لمجلس
اللوردات وللمجلس العموم عملاً بكتاب الصلاة الذي هو مرجع الأمة الانكليزية أميل حكم
المطارين هذا الى مجلس اللوردات ، وكانت للمناقشات فيه جلسات متعددة بلغت من اهتمام الملأ
ما لم تبلغه المناقشات في أية مسألة .

وقيل إن بعض اللوردات من بلغ بهم الكبر عتياً قد حملوا الى المجلس على الاكف حتى لا
يفوتهم سماع هذه المناقشات . وأخيراً أيد مجلس اللوردات بالأكثرية قرار مجمع الأساقفة ولم يكن
ذلك كافياً ، إذ كان لا بد لامضاء الحكم من قرار مجلس الأمة الذي يقال له مجلس العموم .

فلما جاءت القضية الى مجلس الأمة نزع بأكثرية أعضائه عرق العصية البروتستانتية وكان في
مقدمتهم ناظر الداخلية البريطانية فنقضوا قرار مجلس اللوردات وحكم مجمع الأساقفة وقرروا
ان الحزب والحرر لا يستحيلان بالبداهة الى جسد السيد المسيح عليه السلام ودمه وتوكلوا في ذلك
على « كتاب الصلاة » الذي هو دستور الكنيسة الانكليكانية الوحيد ولم يوافقوا مجمع الأساقفة
إلا على زيادة العبارات التي زادها في الدعاء للملك انكلترة . وعلى أثر هذا القرار من مجلس
العموم استعفى رئيس أساقفة كنتربري من منصبه .

وإنما أتينا على ذكر هذه الحادثة التي ليست موضوعنا مباشرة إثباتاً لأمرين أولهما استمساك =

ننكر عليهم من الفضائل فلا نقدر ان ننكر عليهم المقدرة والذكاء والحسن العملي والجد الهائل - لا يزالون يفخرون بتوراة وجدت منذ آلاف السنين ويشاركهم فيها المسيحيون .

ولماذا نرى اعظم شبان اليهود رقبياً عصرياً يجاهدون في إحياء اللغة العبرية التي لا يعرف مبدأ تاريخها لتوغلها في القدم ، ولا يقال عنهم أنهم رجعيون ومتأخرون وقهقريون ؟

وقد نشر وايزمان رئيس الجمعية الصهيونية حديثاً في جريدة (المانتز) كان من أهم ما فخر به وأدلى به كفاءة ينبغي ان تذكرها لهم الانسانية هو (ان فلسطين الحديثة تتكلم اليوم بأجمعها بلغة الأنبياء) يريد بفلسطين الحديثة فلسطين اليهودية التي قد نشر الصهيونيون فيها اللغة العبرانية القديمة وأجبروا نسلهم الجديد على أن يتحدثوا بها لتكون اللغة الجامعة لليهود . ومن الذي

= الأمة الانكليزية بمبادئها الدنيوية وشدة اهتمامها بهذه المباحث مع انها في طليعة الأمم الراقية بلا نزاع والثاني تشدق من يقول ان أوروية نيزت الدين ظهيرياً ومن يقول ان أوروية فصلف الدين عن السياسة وان هذا الفصل كان نجاحها وأنه حري بالمسلمين أن ينجحوا نهجها إن كانوا يريدون لأنفسهم رقبياً كركي الأوروبيين وسلطاناً في الارض كسلطانهم . فأين فصل الدين عن السياسة هنا ؟

وهذا « كتاب الصلاة » هو الذي اعتمد عليه مجلس العموم في نقض قرار مجلس اللوردات . وأين فصل الدين عن السياسة وأنت ترى ان مسألة دينية بجملة تطرح في مجلس اللوردات ومجلس النواب ويفصلان فيها فان لم تكن هذه المسألة دينية فما الديني إذا ؟ وإن لم يكن مجلسا الشيوخ والنواب مختصين بالسياسة فما المجالس التي تختص بالسياسة بمدى ؟ فليتأمل القارئ النصف مدى التضليل الذي يقوم به المضللون من المسلمين الجغرافيين إما جهلاً وتعامياً عن الحقيقة وإما خدمة للاستعمار الأوروبي الذي ليس له غرض أعز عليه من ان يأتي على بنيان الاسلام من القواعد (ش) ،

فعل هذا ؟ الجواب هم اليهود المعصريون الذين هم أشد الناس أخذاً بمبادئ العلم الحديث والحضارة المصرية .

وَمَا يَذَكَرُ إِلَّا أُولَئِكَ الْآلِيَابِ (١) .

وماذا عساني أحصي من هذه الأمثال والعبر في رسالة وجيزة كهذه ؟

كل قوم يمتصمون بدينهم ومقومات ملتهم ومشخصات قومهم الموروثة ولا ينبزون بهذه الانقلاب إلا المسلمين !

فإنه إذا دعاهم داع الى الاستمسك بقرآنهم وعقيدتهم ومقوماتهم ومشخصاتهم وباللسان العربي وآدابه والحياة الشرقية ومناحيها قامة قيامة الذين في قلوبهم مرض ... وصاحوا : لتسقط الرجعية . وقالوا : كيف تريدون الرقي وأنتم متمسكون بأوضاع بالية باقية من القرون الوسطى ونحن في عصر جديد .

جميع هؤلاء الخلائق تعلموا وتقدموا وترقوا وعلوا وطاروا في السماء والمسيحي منهم باق على انجيله وتقاليده الكنسية ، واليهودي باق على وثنه وأرزه المقدس ، وكل حزب منهم فرح بما لديه وهذا المسلم المسكين يستحيل ان يترقى إلا إذا رمى بقرآنه وعقيدته وماأخذته ومنازعه ومشاربه ولباسه وفراشه وطعامه وشرابه وأدبه وطربه وغير ذلك وانفصل من كل تاريخه ، فان لم يفعل ذلك فلا حظ له من الرقي ؟

فهذا ما كان من ضرر الجاحد الذي يقصد السوء بالاسلام وبالشرق أجمع ويخدع السذج بأقاويله .

(١) من الآية : ٢٦٩ من البقرة .



غوائل الجامدين في الاسلام والمسلمين

وبقي علينا المسلم الجامد ، الذي ليس بأخف ضرراً من الجاحد ، وان كان لا يشره في الخبث وسوء النية ، وإنما يعمل ما يعمل عن جهل وتعصب .

فالجامد هو الذي مهد لأعداء المدنية الاسلامية الطريق لمحاربة هذه المدنية محتجين بأن التأخر الذي عليه العالم الاسلامي إنما هو ثمرة تعاليمه .

والجامد هو سبب الفقر الذي ابتلي به المسلمون لأنه جعل الاسلام دين آخرة فقط . والحال ان الاسلام هو دين دنيا وآخرة . وان هذه مزية له على سائر الأديان . فلا حصر كسب فيما يعود للحياة التي وراء هذه كما هي ديانات أهل الهند والصين ، ولا زهده في مال الدنيا وملكها ومجدها كتعاليم الانجيل ، ولا حصر سعيه في أمور هذه المعيشة الدنيوية كما هي مدينة اوروبة الحاضرة .

والجامد هو الذي شهر الحرب على العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية وفنونها وصناعاتها بحجة انها من علوم الكفار . فحرم الاسلام ثمرات هذه العلوم ، وأورث أبناءه الفقر الذي هم فيه وقص أجنحتهم ، فان العلوم الطبيعية هي العلوم الباحثة في الأرض . والأرض لا تخرج افلاذها إلا لمن

يبحث فيها (١) فان كنا طول العمر لا نتكلم إلا فيما هو عائد للآخرة قالت لنا الأرض : إذهبوا توأ الى الآخرة فليس لكم نصيب مني .

ثم إننا بمحصر كل مجهوداتنا في هذه العلوم الدينية والمحاضرات الأخروية جعلنا أنفسنا بمرکز ضعيف بإزاء سائر الأمم التي توجهت الى الأرض ، وهؤلاء لم يزالوا يعملون في الأرض ونحن ننحط في الأرض ، الى ان صار الأمر كله في يدهم ، وصاروا يقدرون ان يأفكونا عن نفس ديننا فضلا عن ان يملكوا علينا دنيانا ومن ليست له دنيا فليس له دين وليس هذا هو الذي يريد الله بنا وهو الذي قال :

وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ الْآيَةَ (٢) .

وقال :

هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً (٣) .

وقال :

قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ

(١) كان جدي الأديب رحمه الله تعالى يقول : ان جار عليك الزمان فمليك ان تجور على الأرض . أي تلح وتجتهد في استخراج خيراتها (ر) .

(٢) النور : من الآية ٥٥ .

(٣) البقرة : من الآية ٢٩ .

الرُّزْقِ ؟ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ
الْقِيَامَةِ ^(١) .

وقال فيما حكاه وأقره :

وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ^(٢) .

وعلمنا ان ندعوه بقوله :

رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً ^(٣) ... الخ

والمسلم الجامد لا يدري انه بهذا المشرب يسعى في بوار ملته وحظها عن
درجة الأمم الأخرى ، ولا يتنبه لشيء من المصائب التي جرهما على قومه
اهملهم للعلوم الكونية حتى أصبحوا بهذا الفقر الذي هم فيه ، وصاروا عيالاً
على أعدائهم الذين لا يرقبون فيه إلا ولا ذمة ، فهو إذا نظر الى هذه الحالة
عللها بالقضاء والقدر بادىء الرأي ، وهذا شأن جميع الكسالى في الدنيا
يحملون على الاقدار .

هذا الخلق هو الذي حبيب الكسل الى كثير من المسلمين فنجمت فيهم فئة
يلقبون « بال دراويش » ليس لهم شغل ولا عمل ، وليسوا في الواقع إلا اعضاء
مشلولة في جسم المجتمع الاسلامي .

(١) الاعراف : من الآية ٣٢ .

(٢) للقصاص : من الآية ٧٧ .

(٣) البقرة : من الآية ٢٠١ .

وهذا الخلق بعينه هو الذي جعل الافرنج يقولون أن الاسلام جبري لا يأمر بالعمل ، لأن ما هو كائن هو كائن ، عمل المخلوق أم لم يعمل .

آيات العمل المبطلّة لتفسير القدر بالجبر والكميل :

ولا شيء أدل على فساد هذا الزعم الافرنجي من القرآن الملائن بالحث على العمل وباستنهاض الهمم ، وابتعاث العزائم ، ونوط الثواب والعقاب والفوز والفشل بالعمل الذي يمله المكلف . قال الله تعالى :

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ^(١) .

وقال تعالى :

وَإِنْ جَادَلوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلِكُمْ ^(٢) .

وقال تعالى :

وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ ^(٣) .

وقال تعالى :

لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالِكُمْ ^(٤) .

(١) التوبة : من الآية ١٠٥ .

(٢) يونس : من الآية ٤١ .

(٣) التوبة : من الآية ٩٤ .

(٤) البقرة : من الآية ١٣٩ .

وقال تعالى :

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا
تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (١) .

وقال تعالى :

وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتَرَكُمُ أَعْمَالَكُمْ (٢) . أي لا ينقصكم اعمالكم .

وقال تعالى :

وَأِنْ تَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ
شَيْئاً (٣) .

لا يليتكم من لاته يليتته أو ولته يلته بمعنى نقصه ، أي لا يبخسكم من
اعمالكم شيئاً ، وقال تعالى :

نُوفٌ إِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ (٤) .

وقال عز وجل :

وَأِنْ كَلَّا لَمَا لِيَوفِينَهُمْ رَبُّكَ أَعْمَالَهُمْ (٥) .

(١) محمد : من الآية ٣٣ .

(٢) محمد : من الآية ٣٥ .

(٣) الحجرات : من الآية ١٤ .

(٤) هود : من الآية ١٥ .

(٥) هود : من الآية ١١١ .

وقال عز وجل :

وَلِيُوفِّيَهُمْ أُعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١) .

وقال عز وجل :

أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ (٢) .

وقال عز وجل :

فَنِعْمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ (٣) .

وقال عز وجل :

لِمَثَلٍ هَذَا فَلَيعْمَلِ الْعَامِلُونَ (٤) .

وقال عز وجل :

إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ (٥) .

وقال عز وجل :

وَتُوفِّيَ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ (٦) .

(١) الاحقاف : من الآية ١٩ .

(٢) آل عمران : من الآية ١٩٥ ،

(٣) الزمر : من الآية ٧٤ .

(٤) الصافات : من الآية ٦١ .

(٥) فاطر : من الآية ١٠ .

(٦) النحل : من الآية ١١١ .

وقال عز وجل :

مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ
حَيَاتًا طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ^(١) .

وقال عز وجل :

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ
مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ^(٢) .

وقال عز وجل :

وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ^(٣) .

وقال عز وجل :

فَأَصَابِهِمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا ^(٤) .

وقال تبارك وتعالى :

وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا ^(٥) .

(١) النحل : ٩٧ .

(٢) آل عمران : ٣٠ .

(٣) الزمر : ٧٠ .

(٤) النحل : من الآية ٣٤ .

(٥) الكهف : من الآية ٥٠ .

وقال تبارك وتعالى :

لِيُذَيِّقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا (١)

وقال تعالى :

إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضَّعْفِ

بِمَا عَمِلُوا (٢)

وقال تعالى :

وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا

يُظْلَمُونَ (٣)

وقال تعالى :

فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ

ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٤)

وقال تعالى :

سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٥)

-
- (١) الروم : من الآية ٤١ .
(٢) سبأ : من الآية ٣٧ .
(٣) الاحقاف : ١٩ .
(٤) الزلزال : الآيتان ٧ و ٨ .
(٥) الاعراف : من الآية ١٧٩ .

وقال تعالى :

جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١) .

وقال تعالى :

وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٢) .

الى غير ذلك مما لا يكاد يحصى من الآيات التي امتلأ بها القرآن ومنها ما هو نص في مسألتنا هذه كقوله تعالى :

وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ (٣) .

وقوله تعالى :

أَوَلَمَّْا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا ؟
قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ (٤) .

إن صاحب السؤال يعلم وأكثر المسلمين لا يعلمون ان هذه الآية خاطب الله تعالى بها أكمل هذه الأمة إيماناً وإسلاماً وهم أصحاب رسول الله ﷺ إذ قمعجوا من ظهور المشركين عليهم في غزوة أحد فرد الله عليهم ببيان السبب وهو مخالفتهم أمره ﷺ للرماة الذين يحمون ظهور المقاتلة بالآل يبرحوا أماكنهم سواء كان الغلب للمسلمين أو عليهم ، فلما انهزم المشركون خالفوا

(١) السجدة : من الآية ١٧ . والاحقاف : من الآية ١٤ . والرافعة : من الآية ٢٤ .

(٢) العنكبوت : من الآية ٥٥ .

(٣) الشورى : من الآية ٣٠ .

(٤) آل عمران : من الآية ١٦٥ .

الأمر لمشاركة المعاتلين في الغنيمة ، فكر عليهم المشركون حتى 'شج' رأس
النبي ﷺ الخ ...

وكلها ناطقة بأن الاسلام هو دين العمل لا دين الكسل ولا هو دين الاتكال
على القدر المجهول للبشر ، كما يقول الدراويش البطالون :

رزقنا على الله عملنا أم لم نعمل ، كما يزين للناس بعض مؤلفي الافرنج من
ان دين الاسلام دين جمود وتفويض وتسليم ، وان تأخر المسلمين إنما نشأ
عن ذلك ، ولو كان في هذه الدعوى ذرة ما من الصحة لما نهض الصحابة أخير
الناس بالاسلام وفتحوا نصف كرة الأرض في خمسين سنة : ولكن التسليم
الذي يتكلمون عليه ويهرفون فيه بما لا يعرفون إنما هو مقرون بالعمل
وبالكدح وبالسمي وإلا فلا يسمى تسليماً بل يسمى جموداً، ويمد بطلاة وهو
مخالف للقرآن وللسنة .

وأما إذا كان التسليم لله مقروناً بالعمل فإنه أنفع في الدنيا والآخرة لأن
افراط المرء في الاعتماد على نفسه يورطه في البطر إذا نجح ، وفي الجزع إذا
فشل . والذي يريده الاسلام إنما هو ان يعقل الانسان ويتوكل (١) وان يدبر
لنفسه بهداية عقله الذي جعله الله مرشداً ، ويعلم مع ذلك ان ليس كل الأمر
بيده ، وان من الاقدار ما لا تدركه الأفكار . وهذا صحيح ، ولما ذكر
النبي ﷺ القدر سأله بعض أصحابه ألا تتكل ؟ فقال :

اعملوا فكل ميسر لما خلق له .

(١) في قوله يعقل هنا تورية لاحتماله معنيين : ظاهرهما تحكيم ادراك العقل في الامور مع
التوكل على الله ، والثاني عقل الناقاة المراد به الأخذ بالاسباب مع التوكل على الله ، اذ فيه
اشارة الى حديث الاعرابي المشهور بين الناس حتى صار مثلاً « اعقلها وتوكل » وفي رواية
« قيدها وتوكل » يعني ناقته فلم يأذن له (ص) ان يتركها توكلها على الله تعالى (ر) .

رواه البخاري ومسلم .

ومن أغرب الغرائب ان هؤلاء الافرنج الذين لا يفتأون ينعتون الاسلام بالجزرية وينسبون تأخر المسلمين الى هذه العقيدة - التي كان يقول بها فئة قليلة من المسلمين - يذهلون عما هو وارد في الانجيل من آيات القضاء والقدر التي تماثل ما في القرآن وقد تزيد عليه مثل قوله: لا تسقط شجرة من رؤسكم إلا بإذن ابيكم السماوي. ومثل آي كثيرة لو أردت استقصاءها لطال المقال.

ولا نجد في الافرنج الذين هم مفرمون بالعمل وهائمون وراء الكسب ومنكرون للقضاء والقدر في الجملة ، إلا من يقرأ الانجيل الشريف ويقدهه ويمجج ببيادته السامية كما نمجج بها نحن . فما بالهم نسوا ما فيه من آيات القضاء والقدر ؟ وما بالهم لم يصفوا أقوال المسيح صلوات الله عليه بالجزرية ؟

يُحَلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا (١) .

وحقيقة الأمر ان كل ما هو وارد في الانجيل وكل ما هو وارد في القرآن من آيات القضاء والقدر إنما كان مقصوداً به سبق علم الله بكل ما يقع (٢) ولم يكن مقصوداً به نفي الاختيار والترهيد في الكسب .

(١) التوبة : من الآية ٣٨ .

(٢) هذا التفسير قول لبعض المتكلمين وهو ان تعلق علم الله بوجود مخلوقات في الأزل هو القضاء ووجودها على وفق العلم هو القدر ، وقال بمضمون انه تعلق الارادة الخ . والتحقيق ان القدر والمقدار هو النظام الذي جرت به سنن الله تعالى في التكوين والتدبير والاسباب والمسببات كما يفهم من نصوص الايات كقوله تعالى: (وان من شيء الا عندنا خزائنه وما ننزله الا بقدر معلوم) . وقوله : (وأنزلنا من السماء ماء بقدر) الاية - وقوله في نظام جمل النطقة في الرحم : (الى قدر معلوم) وقوله : (ثم جئت على قدر يا موسى) وقد حققنا المسألة في المنار والتفسير مراراً (ر) .

وفي حديث الوزنتين والوزنات وغير ذلك من مواعظ الانجيل الشريف
ما يدل على ما عزاه القرآن الكريم الى صحف ابراهيم وموسى اي وغيرهما من
رسل الله .

أَلَا تَرَىٰ وَاذِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ * وَأَنْ لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا
سَعَىٰ * وَأَنْ سَعِيَّهُ سَوْفَ يُرَىٰ * ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ
الْأَوْفَىٰ (١) .



من هذه الصفحة ١١٢ الى ١٢٤
كسبها من كتابه في هذه الصفحات كما ذكره في
تفسيره الذي

(١) النجم : الايات : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ .











وهذه هي القرون المسماة في التاريخ بالقرون الوسطى ولا نقول ان
الاروبيين كانوا في هذه القرون بأجمعهم هائمين في ظلمات بعضها فوق بعض ،
بل نقول ان العرب كانوا أعلى كعباً منهم بكثير في المدنية باقرار مؤرخيهم ،
وبرغم أنف لويس برتران واضرابه .

ومن الكتب المخرجة حديثاً الشاهدة بذلك التاريخ العام للكاتب الفيلسوف
الانكليزي « ولز » و « تاريخ مدنيات الشرق » مؤلف افرنسي متخصص
في التواريخ الشرقية اسمه « غروسه » فالحقيقة التاريخية المجمع عليها هي
واحدة في هذا الموضوع لم يظهر ما ينقضها وإن يظهر ، وهي : ان العرب
في القرون الوسطى كانوا اساتيد الاروبيين ، وكان الواحد من هؤلاء إذا
تخرج على العرب تباهى بذلك بين قومه .

سبب تأخر أوروبا الماضي ونهضتها الحاضرة :

أفنجعل هذا التأخر الذي كان عليه الأوروبيون في القرون الوسطى مدة
الف سنة ناشئاً عن النصرانية التي كانت دينهم الذي يعضون عليه
بالتواجد ؟

نعم ان الأمم البروتستانتية منهم تجعل مصدر هذا التأخر الكنيسة البابوية
لا النصرانية من حيث هي . وتزعم ان نهضة أوروبا لم تبدأ إلا بخروج
(لوثير ، وكلفين) على الكنيسة الرومانية .

وأما فولتير ومن في حزبه من أقطاب الملاحه فلا يفرقون كثيراً بين
الكاثوليك والبروتستانت ، وعندهم ان جميع هذه العقائد واحدة وانها عائقة
عن العلم والرقى ، ولهذا قال فولتير تلك الكلمة عندما ذكر لديه لوثير ،
وكلفين ، قال :

« كلاماً لا يصلح ان يكون حذاء لمحمد (١) » يرى ان محمد ﷺ بلغ من الاصلاح ما لم يبلغا ادائه ، مع اعتقاد الكثير ان مذهبها كان فجر أنوار أوروبا (٢) .

والحق الذي لا يرتاب فيه أن النصرانية نفسها لم تكن هي المسؤولة عن جهالة الافرنج المسيحيين مدة الف سنة في القرون الوسطى بل للمسيحية الفضل في تهذيب برايرة أوروبا .

وهؤلاء اليابانيون هم وثنيون ، ومنهم من هم على مذهب بوذا ، ومنهم من يقال لهم طاويون ، وكثيرون منهم يتبعون الحكيم الصيني كنفوشيوس . ولقد مضى عليهم نحو الف سنة ولم تكن لهم هذه المدنية الباهرة ولا هذه القوة والمكانة بين الأمم . ثم نهض اليابان من نحو ستين سنة وترقوا وعزوا وغلظ أمرهم ، وعلا قدرهم وصاروا الى ما صاروا اليه ولم يبرحوا وثنيين .

فلا كانت الوثنية إذأ سبب تأخرهم الماضي ولا هي سبب تقدمهم الحاضر ، وقد تفاوتت اليابان والروسيا وتحاربتا فتغلبت اليابان على روسيا مع ان

(١) ذكر فولتير هذه الجملة أمام البرنس سيندورف النموسي الذي صار فيما بعد رئيساً لوزراء سلطنة النمسة وعندما دخل بوقارت فيينا كان هذا البرنس هو رئيس الحكومة فيها وكان تقله هذه الجملة عن فولتير في أيام شبابه عندما اجتمع به في سويسرة فقيدها في مذكراته المحفوظة في خزانة كتب فيينا وعنها نقلتها جريدة اللطان ونحن نقلناها عنها (ش) .

(٢) ونحن نعتقد هذا وكان شيخنا الاستاذ الامام واذكياه مريديه كسعد باشا زغلول يمتقدونه ولكن بمعنى سلمي وهو ان هذا المذهب اضعف حجر الكنيسة على العقول المشرية وتقييدها بتماليمها وفهمها للدين ورأحها في الدنيا ، وكان سبب هذا المذهب ما سوري الى اوروبة عقب الحروب الصليبية بعاشرة المسلمين من استقلال العقل في فهم الدين وهدم سيطرة أحد عليهم فيه كما بينه شيخنا في كتاب الاسلام والنصرانية (ر) .

اليابانيين في العدد هم نصف الروس ، ولكن مما لا شك فيه ان اليابانيين أرقى من الروس ، والحال ان روسية عريقة في النصرانية واليابان عريقة في الوثنية .

فليترك إذاً بعض الناس جعل الأديان هي المعيار للتأخر والتقدم (١) .

أفنعول من اجل هذا المثال : إن الأنجيل هو الذي أحرر روسيا عن درجة اليابان ، وان عبادة الآلهة ابنة الشمس هي التي جذبت بضبع اليابان حتى سبقت روسيا ؟

إن لهذه الحوادث اسباباً وعوامل متراكمة ترجع الى أصول شتى ، فاذا تراكمت هذه العوامل في خير أو شر تغلبت على تأثير الأديان والعقائد واصبحت فضائل اقوم الأديان عاجزة بازاء شرها ، كما اصبحت معايب أسخفها غير مؤثرة في جانب خيرها .

ولسنا هنا في صدد أسباب تقدم اليابان السريع حتى نبين ان اعتقاد عامتهم (وجود حصان مقدس يركبه الإله فلان) لم يقف حائلاً دون تقدمهم المبني على ما ركب في فطرتهم من الحماسة ، وما أوتوا من الذكاء ، وما أورثهم نظام الاقطاع القديم من التنافس في الجهد والقوة .

وعندنا أمثلة كثيرة تكاد لا تحصى في هذا الباب اجتزأنا منها بما ذكرناه . ولم نكن لنتعرض لهذا المقام لولا حملات القسوس والمبشرين وكثير من الأوروبيين على الاسلام ، وزعمهم انه عنوان التأخر ، وانه رمز الجمود ،

(١) هذا صحيح في جملة الأديان إلا الاسلام فقرآنه وباريحه يشبتان انه هو سبب تقدم أهله حين امتدوا به وسبب تأخرهم حين اعرضوا عنه ، كما بين هذا أمير الكتاب في رسالته هذه فأظلم الظلم ان يجعل سبب تأخيرهم (ر) .

وتحدثهم بذلك في الأندية والجامع ونشرهم هذه الافتراءات في المجلات والجراند ، وقولهم ان الشجرة تعرف من ثمارها وان حالة العالم الإسلامي الحاضرة هي نتيجة جمود الإسلام ، وتحجر القرآن .

كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (١) .

وحسبك ان المسيو سان (المقيم الافرنسي السامي) في المغرب ينشر في العدد الأخير من (مجلة الأحياء) الافرنسية مقالة يتكلم فيها على يقظة المغرب بعد (ليل الإسلام) ! هكذا تعبيره .

فان كان تأخر إحدى الممالك الإسلامية حقبة من الدهر يجب أن يقال فيه (ليل الإسلام) فكم كان ليل النصرانية طويلاً عندما بقيت أوروبا المسيحية زهاء الف سنة وهي في حالة الهمجية او ما يقرب من الهمجية .

إن إدخال الأديان في هذا المعترك وجعلها هي وحدها معيار الترقى والتردي ليس من النصفة في شيء . اما الاسلام فلا جدال في كونه هو سبب نهضة العرب وفتوحاتهم المدهشة مما اجمع على الاعتراف به المؤرخون شرقاً وغرباً ولكنه لم يكن سبب انحطاطهم فيما بعد كما يزعم المفترون الذين لا غرض لهم سوى نشر الثقافة الاوروبية بين المسلمين دون ثقافة الإسلام وبسط سيادة أوروبا على بلدانهم بل كان السبب في تردي المسلمين هو انهم اكتفوا في آخر الأمر من الإسلام بمجرد الاسم والحال ان الإسلام اسم وفعل .

(١) الكهف : من الآية . .

حث القرآن على العلم

(باعث للمسلمين على سبق الأمم في الرقي)

العالم الإسلامي يمكنه النهوض والرقي والحاق بالأمم العزيزة الغالبة إذا أراد ذلك المسلمون ووطنوا أنفسهم عليه ، ولا يزيدهم الإسلام إلا بصيرة فيه وعزماً ، ولن يجدوا لأنفسهم حافزاً على العلم والفن خيراً من القرآن الذي فيه :

هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ^(١)

والذي فيه :

وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ ^(٢)

(١) الزمر : ٩ .

(٢) البقرة : من الآية ٢٤٧ .

والذي فيه :

وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ (١) .

والذي فيه :

شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ
قَائِمًا بِالْقِسْطِ (٢) .

والذي فيه :

بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ (٣) .

والذي فيه :

يَرَفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
دَرَجَاتٍ (٤) .

(١) آبل عمران : من الآية ٧ .

(٢) آل عمران : من الآية ١٨ .

(٣) العنكبوت : من الآية ٤٩ .

(٤) المجادلة : من الآية ١١ .

والذي فيه :

وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ (١) .

وفيه :

يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا (٢) .

وفيه :

فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا (٣) .

وغير ذلك من الآيات الكريمة ، وفيه ما هو خاص بالأمة العربية .

هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٤) .

(١) البقرة : من الآية ١٢٩ ، وآل عمران : من الآية ١٦٤ ، والجمعة : من الآية ٢ .

(٢) البقرة ٢٦٩ .

(٣) النساء : من الآية ٥٣ ،

(٤) الجمعة : ٢ .

وقد زعم بعضهم ومن جملتهم (سيكار) هذا الذي بالمغرب قد ألف كتاباً في الطعن على الإسلام ، وهو الذي يكتب في مجلة «مراكش الكاثوليكية» أن المراد بلفظة «العلم» في القرآن هو العلم الديني ولم يكن المقصود به العلم مطلقاً لنستظهر به على قضية تعظيم القرآن للمعلم وإيجابه للتعليم .

وقد أتى سيكار من المغالطة في هذا الباب ما لا يستحق أن يرد عليه لما فيه من المكابرة في المحسوس . وكل من تأمل مواقع هذه الآيات المتعلقة بالعلم والحكمة وغيرها مما يبحث على السير في الأرض والنظر والتفكير يعلم أن المراد هنا بالعلم هو العلم على إطلاقه متناً وأولاً كل شيء ، وأن المراد بالحكمة هي الحكمة العليا المعروفة عند الناس ، وهي غير الآيات المنزلة والكتاب كما يدل عليه العطف وهو يقتضي المغايرة . ويعزز ذلك الحديث النبوي للشهير : «اطلبوا العلم ولو في الصين» (١) .

فلو كان المراد بالعلم هو العلم الديني كما زعم سيكار ما كان النبي ﷺ يبحث على طلبه ولو في الصين إذ أهل الصين وثنيون لا يجعلهم النبي مرجعاً للعلم الديني كما لا يخفى .

وفي بعض الآيات من القرائن اللفظية والمعنوية ما يقتضي أن المراد بالعلم علم الكون لأنه في سياق آيات الخلق والتكوين وهي في القرآن أضعاف الآيات في العبادات العملية كالصلاة والصيام كقوله تعالى :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ

(١) تتمته «فإن طلب العلم فريضة على كل مسلم» رواه العقيلي وابن عدي والبيهقي وابن عبد البر عن أنس وفيه عند الأخير زيادة أخرى في فضل العلم وله طرق يقوي بعضها بعضها (ر) .

مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ، وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا
 وَغَرَايِبُ سُودٌ * وَمِنَ النَّاسِ وَالذَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ
 أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ، إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ (١) .

أي العلماء بما ذكر في الآية من الماء والنبات والجبال وسائر المواليد المختلفة
 الألوان وما فيها من أسرار الخلق لا العلماء بالصلاة والصيام والقيام .

وقد كنا ظننا هذا الرجل على شيء من حب الحقيقة ، فلما أنكر المدنية
 الاسلامية رددنا عليه في المنار وجادلناه بالتي هي أحسن ، وعظمنا من قدر
 المدنية المسيحية ، وقرنا منها ورددنا على القائلين من الأوروبين بأن النصرانية
 كانت وقفاً لسير المدنية وسبباً لسقوط اليونان والرومان إلى غير ذلك .

فكان من سيكار هذا ان نشر سلسلة مقالات تتضمن من الطعن على الاسلام
 منا لو جئنا نرده لم نستغن عن إيراد شبه واعتراضات تتعلق بالدين المسيحي
 بما نأبى ان نتعرض له لأنه ليس من العدل ولا من الكياسة ولا من حسن
 الذوق ان نقيظ إخواننا المسيحيين من أجل رجل اسمه سيكار او غيره من
 هذه الطبقة من الدعاة والمبشرين ، هذا رائداً الى ما رأيناه في كلامه من
 الخلط والخطب والمغالطة التي من قبيل قوله : إن العلم المقصود في القرآن
 ليس هو العلم المعروف عند الناس بمفهومه المطلق ، وإنما هو العلم الديني فقط
 لأن القرآن لا يهمه شيء من علوم الدنيا ! فكابر كهذا لا يستحق الجواب .

ثم علمنا ان المسيو سيكار هذا هو من مستخدمى فرنسة في الرباط بادارة
 الأمور الاسلامية وأنه هو والمسيو لويس برينو مدير التعليم الاسلامي هناك —

(١) فاطر : الايتان ٢٧ و ٢٨ .

والقومندان ماركو مدير قلم المراقبة على الجرائد والمطبوعات - والقومندان
مارتي مستشار العدالة الاسلامية - ورهط آخرون هم الذين لعبوا الدور الأهم
في قضية العمل لتنصير البربر .

وما كان استخدام فرنسة لهم في مهمات كلها عائدة للاسلام إلا على نية
نقض كل ما يقدرون عليه من بناء الاسلام بالمغرب . وستذوق فرنسا ولو
بعد حين وبال ما عملته وتعمله من التعرض للدين الاسلامي الذي تعهدت في
معاهداتها باحترامه .

إننا لا نريد لفرنسا إلا خيراً ولكننا ننصح لها بالعدول عن هذه السياسة
التي هي على خط مستقيم ضد المبادئ التي تعلنها عن نفسها من أن الأديان في
نظرها على حد سواء؟ فان كانت الأديان عند الدولة الافرنسية على حد سواء
فلماذا هذا الاجتهاد في تنصير البربر وهم مسلمون؟ ولماذا هذه المساعي الخثيثة
في تنصير العلويين سكان جبال اللاذقية وفي فصلهم عن الوحدة السورية والحال
أن العلويين هم فرقة من الفرق الاسلامية كما لا يخفى. وكذلك ننصح الانكليز
بالعدول عن دعايتهم الدينية في السودان والأوغاندة وننصح لهولاندة بترك
دعايتها الدينية بين مسلمي اندونيسيا .

كلمة لطلاب النهضة القومية دون الدينية :

يقول بعض الناس ^(١) ما لنا وللرجوع الى القرآن في ابتعات هم المسلمين
الى التعليم فان النهضة لا ينبغي ان تكون دينية بل وطنية قومية كما هي
نهضة أهل أوروبا ، ونحببهم ان المقصود هو النهضة سواء كانت وطنية أم
دينية ^(٢) على شرط ان تتوطن بها النفوس على الحب في حلبة العلم ، ولكننا

(١) أي من ملاحدة المسلمين الجاهلين او التجاهلين لحال اورزبا في عصبيتها الدينية (ر).

(٢) ولكن السؤال عنه هو نهضة المسلمين من حيث هم مسلمون .

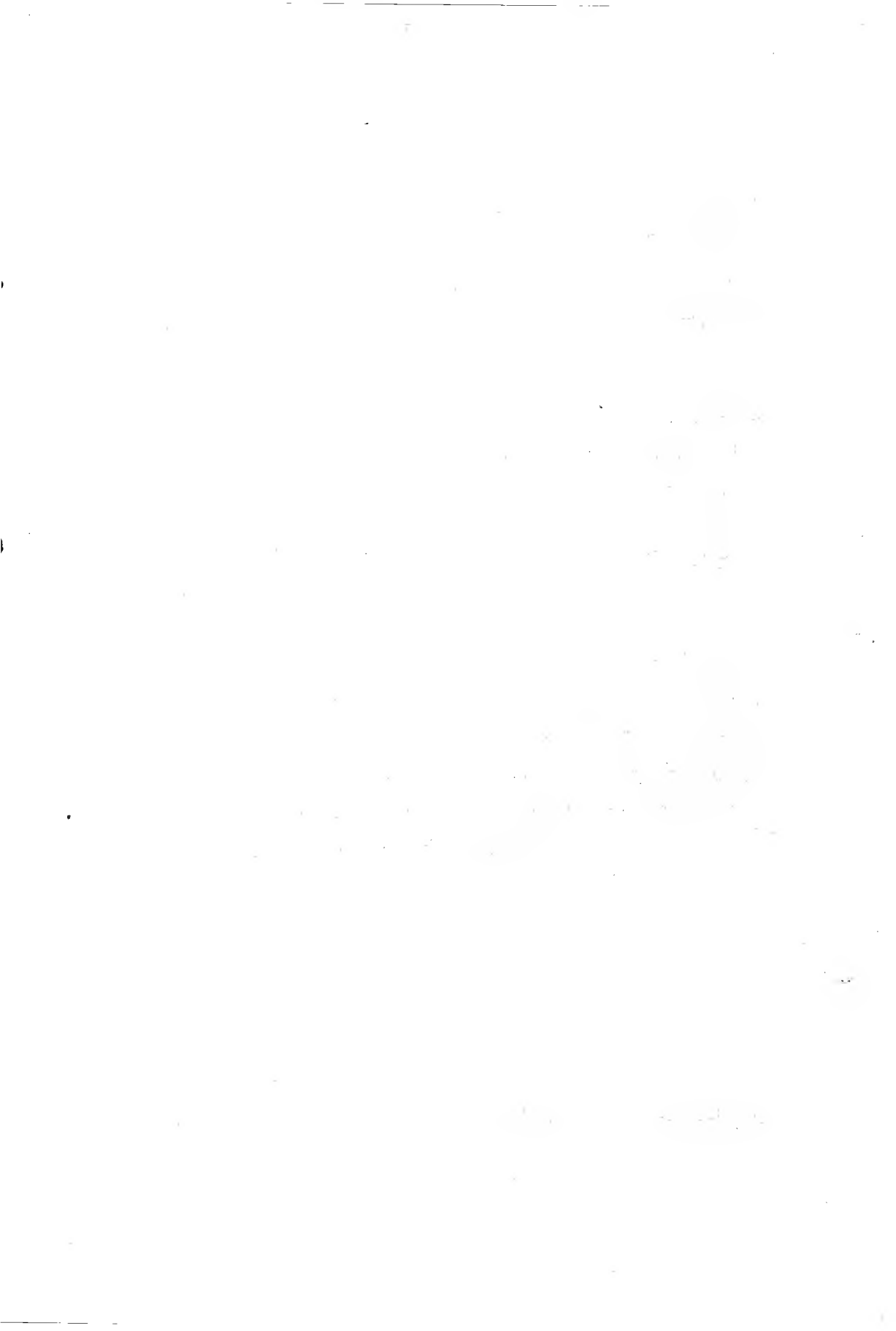
نخشى إن جردناها من دعوة القرآن أن تفضي بنا الى الالحاد والاباحة وعبادة الأبدان واتباع الشهوات ، مما ضرره يفوت نفعه ، فلا بد لنا من تربية علمية سائرة جنباً الى جنب مع تربية دينية ، وهل يظن الناس عندنا في الشرق ان نهضة من نهضات أوروبا جرت دون تربية دينية ؟ وهل جرت نهضة اليابان دون تربية دينية ؟

أفلم يقل رئيس نظار ألمانيا في الرايستاغ منذ ثلاث سنوات : ان ثقافتنا مبنية على الدين المسيحي؟ وهذا هو اعلان المانيا التي هي المثل الأعلى في العلم والصناعة واتقان الآلات والأدوات، لا ينازع في ذلك أحد ، ولا أعداؤها.

أفتوجد جامعة في ألمانيا أو انكلترا أو غيرها من هذه الممالك الراقية من دون ان يكون فيها علم اللاهوت المسيحي ؟^(١)

ثم انهم عندما يقولون : في اوروبا (نهضة وطنية) أو (نهضة قومية) أو جامعة وطنية أو قومية ، لا يكون مرادهم بالوطن التراب والماء والشجر والحجر ، ولا بالقوم السلالة التي تنحدر كلها من دم واحد ، وإنما الوطن والقوم عندهم لفظتان تدلان على وطن وأمة بما فيها من جغرافية وتاريخ وثقافة وحرث وعقيدة ودين وخلق وعادة مجموعاً ذلك معاً ، وهذا الذي يناضلون عنه ويستبسلون كل هذا الاستبسال من أجله .

(١) وهذا بعد التربية المنزلية الدينية المحضة والتربية المدرسية الابتدائية وجلها دينية (ر).



أسباب انحطاط المسلمين

في العصر الأخير

من أعظم أسباب انحطاط المسلمين في العصر الأخير فقدهم كل ثقة بأنفسهم وهو من أشد الأمراض الاجتماعية وأخبت الآفات الروحية لا يتسلط هذا الداء على إنسان إلا أودى به ولا على أمة إلا ساقها إلى الفناء وكيف يرجو الشفاء ، عليل يعتقد بحق أو يباطل ان علتة قاتلته ؟ وقد أجمع الأطباء في الامراض البدنية ان القوة المعنوية هي رأس الادوية وان من اعظم عوامل الشفاء إرادة الشفاء فكيف يصلح المجتمع الاسلامي ومعظم أهله يعتقدون انهم لا يصلحون لشيء ولا يمكن ان يصلح على أيديهم شيء ، وانهم إن اجتهدوا أو قعدوا فهم لا يقدرون ان يضارعوا الأوروبيين في شيء .

وكيف يمكنهم ان يناهضوا الأوروبيين في معترك وهم موقنون ان الطائفة الأخيرة ستكون للأوروبيين لا محالة ؟ فصار مثلهم مع هؤلاء مثل اولئك الاقران الذين كان يبطش بهم سيدنا علي رضي الله عنه في وقائعهم فقد حدثوا انه سمعت له في صفين اربعمائة تكبيرة وكان من عادته كرم الله وجهه انه يكبّر كلما صرع قرناً ، فقليل له في ذلك فأجاب :

كنت إذا حملت على الفارس ظننت أني قاتله فكنت انا ونفسي عليه .

وهكذا أصبح المسلمون في العصر الاخير يعتقدون انه ما من صراع بين المسلم والاوروبي إلا سينتهي بمصرع المسلم ولو طال كفاحه . وقر ذلك في نفوسهم وتحمّر في رؤوسهم لا سيما هذه الطبقة التي تزعم انها الطبقة المفكرة الماقلة المولمة بالحقائق الصادقة عن الخيالات بزعمها فانها صارت تقرر هذه القاعدة المشؤومة في كل نادٍ وتجعل التشاؤم المستمر والنعاب الدائم من دلائل العقل وسعة الادراك وتحسب اليأس من صلاح حال المسلمين من مقتضيات العلم والحكمة وما زالت تنفخ في بوق التثييط وتبث في سواد الأمة دعاية المعجز الى ان صار الاستخذاء يبدن الجميع الا من رحم بك وكانت روحه من اصل فطرتها قوية عزيزة .

ولم تقتصر هذه الفئة على القول بأن حالة المسلمين الحاضرة هي متردية متدنية لا تقاس بحالة الافرنج في قليل ولا كثير بل زعمت ان التعب في مجارة المسلمين للافرنج في علم او صناعة او كسب او تجارة او زراعة او حرب او سلم او اي منحى من مناحي العمران هو ضرب من المحال وشغل بالعبث لا يليق بالماقل اتيانه ، وكان المسلمين من طينة والافرنج من طينة اخرى فعملوا الافرنج على المسلمين أمر لا بد منه وكأنه كتب في اللوح المحفوظ وجفأ به القلم ولم يبق امام المسلمين الا ان يعلموا كونهم طبقة منحطة عن طبقة الافرنجة ويعملوا بمقتضى هذه المقيدة .

وكثيراً ما وقعت لي مجادلات مع هؤلاء المفلسين بالفارغ صفار النفوس ولم يكن يدخل في عقولهم المنطق ولا يعظمهم التساريخ ولا ينفع في اقناعهم علم الطبيعة ولا التشريح ولا يحبك بهم استنتاج ولا قياس وذلك لما غلب عليهم من آفة الذل ومرض الاستخذاء وقد احس الاوروبيون بما عند المسلمين من هذه الحالة الروحية الموافقة لمصالحهم الاستعمارية فصاروا يروجونها فيهم ويقوون عندهم هذه العقيدة فانطبق على هؤلاء الناعقين بالبين الآية الشريفة :

فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا (١) .

ولم يكن الافرنجة وسعاتهم ودعاتهم بلومين على ترويج هذه النظريات التاعسة بين المسلمين لأنها مما يسهل الاستمرار ويمهد طريقه ويكفيهم المقاتلات والمنازلات ويوفر عليهم المزاومات والسابقات ويجعل لهم التفوق بلا نزاع والتسلط دون جدال ولكن العجب كل العجب من هؤلاء المسلمين الذين أمرهم الله ليتصفوا بالعزة ويتسموا بالانفة ويستوفوا تمام الرجولة كيف كانوا ينقادون لهذه الاضاليل التي ما لها عبوديتهم للأجانب . لقد صدق فيهم كلام الله تعالى :

وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢) .

واكثر ما كانوا يؤكدهم للناس من عدم قابلية المسلمين هو استحالة قيامهم بالمشروعات العمرانية والاعمال المادية وكل ما يتعلق به حساب ورقم او مساحة وقياس فإذا قلت لهم : إن كان المسلمون لا يحسنون هذه العلوم كما تزعمون فكيف استطاعوا ان يؤثروا هذه الآثار الباهرة التي يؤمها السياح من اقاصي الدنيا وكيف ملأوا مصر والشام والعراق والمغرب ويران والهند والقسطنطينية وغيرها مباني ومؤسسات تبهر الأبصار وتحير الأفكار وكانت لهم معامل ومناسج ودور صناعات متنوعة وغير ذلك مما يمد في الصناعة من الطراز الأول اجابوك :

قد كان هذا قبل ان يرقى الافرنج هذا الرقي الحديث وقبل ان يكشفوا

(١) البقرة : من الاية ١٠ .

(٢) التوبة : من الاية ٤٨ .

امرار الكون التي كشفوها وغير ذلك مما ليس يجواب عن هذا الخطاب
والموضوع هو في واد وهذا في واد .

فنحن نريد ان نقول ان كل من سار على الدرب وصل وان المسلمين إذا
تعلموا العلوم العصرية استطاعوا ان يعملوا الأعمال العمرانية التي يقوم بها
الافرنج وانه ليس هناك فرق في القابلية البشرية ولكن على شرط ان ينفذ
المسلمون عن أنفسهم غبار الحول ويلغوا هذه القاعدة التي قد كانت من أسباب
شقائهم زمناً طويلاً وهي ان كل عمل عمراني في الشرق لا بد من ان يستعار
له شركة أوروبية لتقوم به والا فلا يستطيع عمله . ولقد أتت التجارب بعد
ذلك بما يثبت فساد هذه النظرية بتمامها وتمكن المسلمون في كثير من البلاد
من انشاء شركات صناعية وتجارية وتأسيس معامل ومناسج ودور صناعة
نجحت نجاحاً باهراً كذب مزاعم تلك الفئة المثبطة وصيرها موضوعاً للهزء .

ولما عزم السلطان عبد الحميد الثاني العثماني على مد سكة حديدية من دمشق
الى الحرمين الشريفين قوبل هذا المشروع أو انشد بمزيد الاستغراب تبعاً للعادة
ومن الناس من ضحكوا به وقالوا :

نحن نرى انفسنا عاجزين عن انشاء طريق عجلات فكيف نستطيع ان
ننشئ سكة حديدية طولها يزيد عن الفتي كيلومتر وأنسى لنا المال والعلم
اللازمان لمشروع عظيم كهذا ؟ واغرب من تشاؤم المسلمين وشعورهم بالعجز
عن القيام بهذا العمل ان المهندس الألماني الكبير مايستر باشا الذي انتدبه
السلطان لرئاسة مهندسي هذا الخط هو نفسه كان لا يمتقد امكان انشاء
هذا الخط وكان هذا الرجل صديقي فسألته مرة عن رأيه فيه فقال لي انه
يرجو ايصاله الى معان وهي مسافة اربعمائة كيلومتر من دمشق فأما مده
من معان الى المدينة فيكاد يكون من المستحيل فسألته هل ذلك من عدم
وجود المال ؟

قال : على فرض وجد المسال فان دون انشاء الخط موانع طبيعية يتمذر التغلب عليها فان السكة يلزم لها ماء في كل محطة والماء لا يوجد إلا في محطات معدودة وان انشأنا صهاريج غملاً بمساء المطر لم يؤمن ان الحرارة في الصيف تنشف بشدتها مياه الصهاريج وهناك صعوبة أخرى وهي ان الخط سيمتد في أمكنة كلها رمال وقد تهب الرياح السافياء فتأتي برمال تقطي الخط ولا يمكن منع ذلك إلا بزرع الخلفاء والقصب والطرفاء وكل هذا يلزمه ماء حتى ينمو وان الماء من تلك الأراضي ؟ هذا كان كلام المهندس الكبير لي من جهة الطبيعة . ثم ذكر الخطر الواقع على الخط من اعراب البادية .

فأما أنا فكنت ممتقداً خلاف اعتقاد الآخرين قائلاً بأن ليس ثمة صعوبات لا يستطيع تذليلها وكنت من الذين ينددون بالمشائين والتهكين ونظمت في هذا المشروع قصيدة احث بها الأمة على التبوع لأجله وتبرعت انا من جيبى بخمسة عشر جنيهاً وذكرت مسأ سيكون لهذا الخط من الفوائد العمرانية والاقتصادية والمكسرية فضلاً عن تسهيل الحج الذي هو هدفه الأسمى وكان مطلع قصيدتي :

أَلَا يَا بَنِي الْإِسْلَامِ قُلْ مِنْ مَسَاعِدِ

لِفِعْلِ سَمَاوِيٍّ الْمُتَوَبِّةِ مَا جَد

فما طبعتم القصيدة ونشرتها سلفني الكثيرون من أولئك الغربان بالسنة حدادٍ وكانى كفتوت في تنوحي بمشروع ربط الشام بالحجاز ويختصر المسافة بينها على الحجاج من ٤٠ يوماً الى أربعة أيام وهزأوا ما شأوا وتعطفوا بقدر ما أرادوا . ولكن كل تلك الفلسفة لم تجدم فتيلاً ونجز الخط الحديدي من دمشق الى المدينة المنورة وهي مسافة الف واربعمئة كيلومتر ولولا خلع

السلطان عبد الحميد لكان قد تم الى البلدة الحرام، ولكن من بعده فترت الهمة بإكاله وجاءت الحرب وعواقبها فقضت بإهماله .

ثم ان هذا الخط جاء من أبداع الخطوط الحديدية في العالم ، صادفت مرة فيه أحد كبراء مسلمي الهند من أعضاء مجلسها الأعلى وهو ممن تثقفوا ثقافة انكليزية محضة وتخرج من جامعة اكسفورد فقال لي : لا يوجد في نفس انكلترة سكة حديدية تضاهي في الاتقان هذه السكة ولو لم أشاهدها بعميوني ما صدقت بوجودها . وبالفعل لم يصدق كثير من المسلمين اخبارها فأرسلوا وفوداً يشاهدونها بأعينهم ، فكان المسافر يصل من دمشق الى المدينة في ليلتين وكانت دمشق تستفيد كل سنة من هذا الخط ما يقارب ٢٠٠ الف جنيه وعمرت القرى التي مر بها الخط وارتفعت أثمان الأراضي ارتفاعاً مدهشاً وتضاعف عمران المدينة المنورة اضعافاً ، هذا فضلاً عما توفر من المشاق والاططار على الحجاج والزائرين والتجار والمسافرين .

واما الصعوبات الطبيعية التي كانوا يقدرونها فلم يصح منها شيء واما الاعراب فلم يقع منهم على الخط ادنى اعتداء . وكان عند كل محطة من محاط الخط قلعة فيها جند للمحافظة وكل تلك المحطات والقلاع كانت مبنية امن بناء . ولما كان لا يتاح لغير المسلمين دخول ارض الحجاز فكان انشاء الخط اي القسم الداخلة منه في الحجاز كله على أيدي مهندسين مسلمين حتى ان مايستر باشا الالماني نفسه لم يتجاوز في اشرافه بلدة تبوك .

ولما ذهب الى المدينة المنورة زائراً النبي ﷺ وذلك سنة ١٣٣٠ هـ . كنت اسمع ان عدم مد الخط الحديدي من المدينة الى مكة نشأ عن اعتراض قبائل العرب من حرب وغيرها وانهم لا يسمحون بمرور الخط في أراضيهم ففحصت عن هذه القضية فوجدت اكثرها هراءً وافتراءً ، وسألت شيوخ القبائل عما يقال من معارضتهم في انشاء السكة فقالوا :

لو كنا معارضين لانشائها لعارضنا ذلك من أول دخولها في أرض الحجاز،
والحال اننا كنا مساعدين للحكومة على هذا المشروع بكل قوانا ، فسألتم
التوقيع على عريضة للدولة يطلبون فيها تمديد هذا الخط من المدينة الى
مكة ، فوقع عليها جم من أولئك المشايخ ، ولم تكن الدولة عهدت إليّ بهذه
المهمة وإنما قمت بها خدمة للوطن وللعلة .

ولولا طرود الحرب العامة بعد ذلك بقليل لكان بوشر بمد الخط الحديدي
من المدينة الى مكة . فلما انتهت الحرب العامة واحتلت انكلترة فلسطين
وفرنسا سوريا كان أول ما توجهت اليه همم الانكليز والفرنسيين هو تعطيل
هذا الخط الحديدي الذي يربط القطر الشامي بجزيرة العرب ويقرب صلوات
المسلمين بعضهم ببعض .

وكم احتج المسلمون على تعطيل هاتين الدولتين لهذا الخط الحيوي للشام
والحجاز وكم أبدوا وأعادوا في ان هذه السكة الحديدية الحجازية كانت
تركيما قد جعلتها من جملة أوقاف المسلمين فلا يحق لدولة أجنبية ان تعبت
بأوقافهم فلم يكن ذلك ليقتنع تينك الدولتين بالاعتدال ورفع الاعتداء ولا
تزال هذه المؤامرة الفظيمة على هذا الحق المقدس من حقوق المسلمين نافذة الى
يوم الناس هذا . فإذا قام شخص مثلنا يذكرهم بهذا الاعتداء القبيح ضاقت
صدورهم به ودس عليه الانكليز في السر وطعن عليه الفرنسيين في الجهر
ونعتوه « بعمدو فرنسا » وما أشبه ذلك .

والحال اننا إنما نريد صلاح احوال بلادنا ولا نضمير لأحد سوءاً . والشاهد
الذي نقصده هنسا هو ما سبق انشاء سكة الحجاز من تشاؤم كثير من
المسلمين واستهزائهم واستنكارهم وتأكيد انه خط محال أنشاؤه ومشروع
يكون من قلة العقل تعليق الأمل به . وهذا مثال من أمثلة كثيرة لا يمكن
استقصاؤها من كثرتها فقلنا تدخل بلداً من بلدان الاسلام ولا يوردون لك
من هذه الأمثال .

وكما ظن المسلمون انهم لا يحسنون شيئاً من المشروعات العمرانية وانه لا بد لهم من الاوروبي حتى يدخلوا الاصلاح في بلادهم وانه من دون الافرنجي لا يقدر على أية عمارة ولا مرفق ذي بال ، كذلك ذهبوا الى انه لا حظ لهم في الأعمال الاقتصادية أصلاً وان كل مشروع اقتصادي إسلامي صائر الى الحبوط إن لم تكن له أركان افرنجية وقد طال نومهم على هذه العقيدة الفاسدة حتى لم يبق في بلادهم شيء اسمه اقتصاد إلا كانت إدارته بأيدي الافرنج أو اليهود وحتى لو دعا منهم داع الى تأليف شركة تجارية أو صناعية أو زراعية لم يدخلها صاحب رأس مال من المسلمين إلا إذا كانت إدارتها بيد افرنجي أو يهودي . وكلمة الجميع عندهم : نحن لا نخرج من أيدينا عمل ولا نصلح لشيء .

وقد بقي اليهود والافرنجة يتمتعون بخيرات بلاد الإسلام قرناً وحقباً طوالاً دون مزاحم ولا مراغم ويستبدون فيها أخلاف كل صنعة ويستورون زناد كل مرفق إلا ما ليس له بال حق ولو قدر ما ضاع على المسلمين في ظل هذا الوهم بالمليارات وعشرات المليارات ما كانت فيه مبالغة وكان المسلمين لم يوجدوا في الدنيا إلا عملة أو اكرة يشتغلون بأيديهم ولا يشتغلون بعقولهم .

وبهذا السبب خلا الميدان في بلاد الإسلام لأصناف الاجانب يركضون فيه جياذ قرانجهم وعزائمهم ويجمعون الثروات التي ليس وراءها متطلع لمزيد وذلك على ظهور المسلمين ومن أكياسهم . وقد يكثر التحدث بما يصيب الأجانب من هذه المكاسب الطائلة التي كان أهل الإسلام أولى بها لأنها من بلادهم ولا تحفزهم همة ولا تأخذهم غيرة فيجربوا الحب في الحلبات الاقتصادية الى أن نبغ في مصر محمد طلعت باشا حرب ، فكان في هذا الباب أمّة وحده وأدرك بوسع عقله وثاقب فكره ان ليس في هذا الموضوع شيء يفوق طاقة المسلمين ولا مما يتعذر وجود أدواته عندهم وان قصورهم فيه عن مباراة

الاجانب لم يكن إلا من آثار ذلك التوهم القديم الذي هو انهم لا يحسنون الجري في أي ميدان من ميادين الاقتصاد وقد وجدت عند هذا الرجل في جانب رجاحة العقل وسداد الحكم همه بعيدة قعساء ونزعة وطنية صافية من الاقضاء سالمة من الأهواء فاجتمعت فيه جميع الشروط اللازمة لمن شاء أن يبدأ بالشرق بنهضة اقتصادية تراحم بالمناكب وثبات الاجانب ومما يندر في الرجال الجمع بين الحساب الدقيق والخيال الواسع وهما قد انتظما جنباً الى جنب في دماغ طلعت باشا حرب فكانت سعة خياله مساعدة له على الاقدام نحو المشروعات التي هي مظان الارباح وكانت دفعة حسابه مساعدة له على نجاحها وضمنان أرباحها . وبالاختصار اقتحم طلعت حرب معركة هي الأولى من نوعها في المجتمع الشرقي .

وعندما باشر جمع رأس المال الذي كان حدده لإنشاء بنك مصر وهو ٨٠ ألف جنيه عانى في ذلك اهوالاً ونحت جبلاً وذلك لما ران على عقول المسلمين من انهم لا يقدرون على الاستقلال بعمل اقتصادي وأن كل عمل منهم في هذا السبيل حابطٌ من نفسه هابطٌ على أم رأسه فلما أخذ طلعت باشا حرب يتقاضى اغنياء مصر المشاطرة في هذا المشروع لبوا نداءه حياءً منه لا اعتقاداً بأنه سيأتي بشمرة وبقيت ثقتهم بأجمعها في بنوك الاجانب ، وما زال معولهم عليها الى أن شاهدوا بأعينهم النجاح الذي كاد يكون معجزة في نظرهم وارتفع رأس مال بنك مصر من ٨٠ ألف جنيه إلى مليون جنيه واحتوت خزائنه من الودائع على عدة ملايين من الجنيهات واشتمل على املاك وسلفات وشركات متعددة متنوعة تقدر بملايين أخرى من الجنيهات بحيث زادت الأموال التي تحت تصرف البنك على عشرين مليون جنيه وكل هذا في ثماني عشرة سنة أنشأ فيها طلعت باشا حرب ومدحت باشا يكن ورفاقها على حساب بنك مصر شركة مصر للغزل والنسيج التي معملها في المحلة هو من أكمل وأعظم معامل الغزل والنسيج في العالم يعمل فيه ١٨ ألف عامل يندر فيهم غير

المصري ويسد من المنسوجات القطنية ثلث حاجة القطن المصري بأجمعه فيكون قد وفر على المملكة المصرية ثلاثة ملايين جنيه سنوياً كانت من قبل تخرج من جيوب المصريين لتدخل في جيوب الأوروبيين .

وهناك من توابع بنك مصر شركة مصر للنسج الحرير وشركة مصر للتمثيل والسينما وكل هذه نالت ممرضاتها الجوائز الكبرى في المعرض الدولي الباريزي سنة ١٩٣٧ ثم شركة مصر لمصايد الاسماك وشركة مطبعة مصر وشركة مصر للطيران وشركة مصر للسياحة وناهيك بشركة مصر للملاحة البحرية وما انشأته من المنشآت الجوارية كالاعلام مثل زمزم والكوثر والنيل وغيرها مما كاد يكون كالأحلام فصار الحجاج يبلغون أحجاز على بواخر يرون بها أنفسهم في مثل قصور الملوك فراهة ورفاهة وراحة ونعيماً ومقاماً كريماً ، وصار سياح مصر الكثيرون الى أوروبا في فصل الصيف يركبون تحت العلم المصري الشريف بواخر لو قرنت ببواخر الامم الأوروبية حلست بينها في الصف الأول هذا بعد أن قضينا كل الدهر نسير ونسري في البواخر الاجنبية ونؤدي اليها أموالنا بلا سبب سوى قصور ممنا عن انشاء بواخر خاصة بأوطاننا بها ركوبنا وعليها نقل بضائعنا وليس هنا محل تفصيل مشروعات طلعت باشا حرب باعث النهضة الاقتصادية في الشرق لنخوض في هذا العباب ولا مقصدنا تمجيده والاشادة بآثره ولو بالحقيقة ، وإنما كان ايرادنا هذه القصة على سبيل المثال لما كان عليه المسلمون من الجبن في المواطن الاقتصادية إلى أن هب هذا الرجل مدير بنك مصر فأيقظهم من سباتهم وأعلمهم أنهم رجال كما الأوروبيون رجال وانهم إذا شجذوا غرار عزائمهم وأعملوا أسنثة قرائحهم قدروا على ما يقدر عليه الأجانب من الأعمال الاقتصادية الكبيرة .

وها نحن اولاء الآن نرى العاملين في بنك مصر وفي الشركات المضافة اليه ثلاثين الف مستخدم وعامل كلهم مصريون إلا النادر الأندر ، وهكذا بدأ المسلمون يقتحمون معارك الحياة الاقتصادية في كل فن من فنونها وقولدت

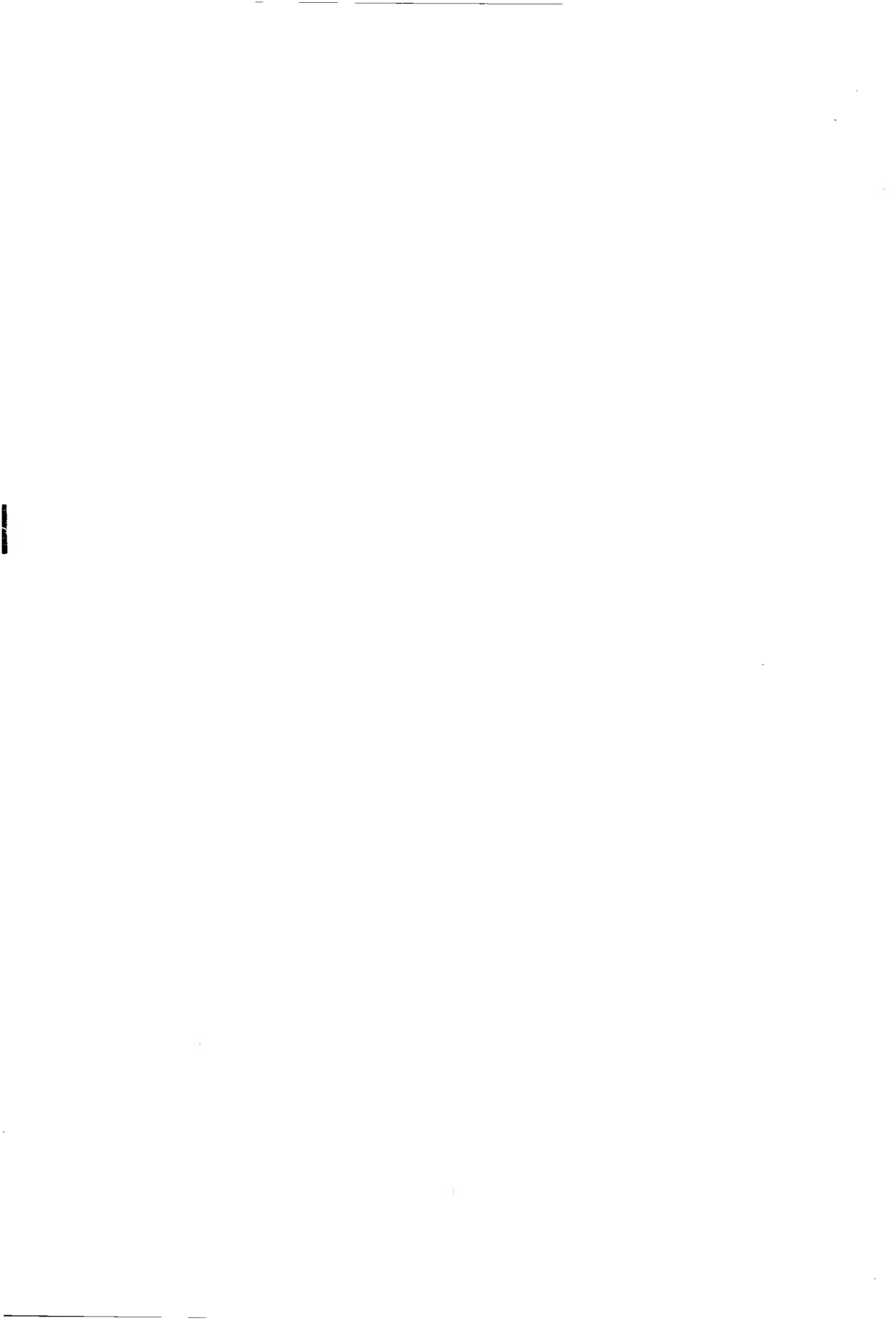
عندهم في أنفسهم ثقة كانت محجوبة عنهم من قبل بحيث ان أحمد حلمي باشا والسيد عبد الحميد شومان من فلسطين أسسا في القدس بنكاً كل رأس مساله خمسة عشر الف جنيه ، وتوقفا بحسن ادارتهما الى أن صيرا هذا البنك للعربي الوحيد في القطر الشامي من البنوك المعدودة ذوي الفروع الكثيرة صار يشتمل على خمسمائة الف جنيه .

وكذلك أسسا بنكاً زراعياً شاطر في تأسيسه أكثر من خمسة آلاف مساهم من عرب فلسطين وبلغ رأسماله فينفاً ومائة الف جنيه ، فسدت بهذين البنكين الأمة العربية في فلسطين حاجتها واستغنى ذوو الحمية منها عن الالتجاء إلى بنوك الأجانب ، وفهم الناس ان هؤلاء ليسوا فوق الشرقيين وأنهم لا يمجزون .

إنما جئنا بهاتين المسألتين للاستدلال على الاضرار الفظيمة التي كان يحدثها بالمسلمين عدم ثقتهم بأنفسهم .

ولعلمهم بدأوا يتعافون الآن من هذا المرض الاجتماعي المهلك والله غالب على أمره .





هكذا إذا توجهت الهمم

الإصلاحات المعنوية والمادية في البلاد المقدسة

توالت على بلاد الإسلام المقدسة قرون واحقاب كانت فيها أشد البلاد افتقاراً إلى الإصلاح وأقربها إلى الفوضى وأقلها أمانة سُبُل وراحة سكان واكثرها عيناً وقسداً . وكانت هذه الحالة فظيمة جداً مخجلة لكل مسلم مرمضة لكل مؤمن حجة ناصعة للأجانب على المسلمين الذين لا يقدرّون أن ينكروا ما في الحجاز من اختلال السبل واضطراب الحبل مع كونه هو مهد الاسلام ومركز الحجيج المام في كل عام الى بيت الله الحرام والمشاعر العظام ومهوى قلوب يتأجج بها الفرام لزيارة مرقد الرسول عليه الصلاة والسلام .

كل الأجانب يستظهرون بهذه الحالة على دعوى ان الإسلام لا يلتئم مع العمران وانه هو والفوضى توأمان . وانه لو كان ديناً عمرانياً لما كانت تكون هذه الحالة السيئة في مركزه ولما عجز عن إقامة العدل والأمن في مأزره .

وحقيقة الحال هي ان تلك الفوضى لم تنشأ إلا عن اهمال العمل بقواعد الشرع الإسلامي وعن ارخاء العنان لبعض الأمراء الذين كانوا يلون أمر الحجاز مدلتين على الناس بما لهم من النسب النبوي الشريف الذي كان يحول

بين سلاطين الإسلام وبين تشديد الوطأة عليهم او ازهاف الحد فيهم ، وقد كان هذا من خطل الرأي ومن التقصير في جانب الشرع فان الشريعة الإسلامية لا تعرف نسباً ولا حساباً .

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١) .

وان الله تعالى قد جعل التقوى فوق كل المناقب والمحامد وقرر ان من قصر به عمله لم ينمض به نسبه ومن المروي عن النبي ﷺ : «إلا إن بعض آل بيتي يرون أنفسهم أولى الناس بي وليس الأمر كذلك . إنما أوليائي المتقون من كانوا وحيث كانوا . إلا اني لا أجيز لأهل بيتي أن يفسدوا ما أصلحت .» .

هذا حديث نقله لنا خاتمة المحدثين المرحوم السيد بدر الدين الحسيني المغربي الدمشقي وكيف كانت درجة ثبوته فهو مطابق لروح الشرع تتفجر معانيه من كل ناحية من الكتاب .

ولهذا كان سلاطين الإسلام من وقت الى آخر يندرون من أمراء الحرمين من كانوا يظلمون الناس ويبيعون في الأرض بغير الحق . ولقد ذهب مثلاً ذلك الكتاب الذي كتبه أحد سلاطين مصر من المماليك إلى أحد أمراء مكة المكرمة وهو الذي يقول فيه :

« اعلم ان الحسنه في نفسها حسنة وهي من بيت النبوة أحسن ، والسئنة في نفسها سئنة وهي من بيت النبوة أسوأ ، وقد بلغنا انك بدلت حرم

(١) المؤمنون : ١٠١ .

الامن بالحيفة ، وأتيت ما يحمره له الوجوه وتسود الصحيفة ، فان وقفت عند حدك وإلا أغمدنا فيك سيف جدك .

ولا ينبغي أن يفهم من هنا ان هؤلاء الأمراء لم يكن فيهم إلا من استحق هذا الوصف . كلا . فقد وجد فيهم الامراء العادلون إلا أنه قد بقيت مع الأسف أحوال الحجاز غير مستوية وأعراب البادية يسطون على الحجاج وليس لداة معرفتهم علاج وكانت كل من الدولة العثمانية والدولة المصرية ترسل طوابير من الجند النظامي مصحوبة بالمدافع وسائر آلات القتال لأجل خفارة قوافل الحج وتؤدي الى زعماء القبائل الرواتب الوافرة وكل هذا لم يكن يمنع الأعراب ومن لا يخاف الله من الدعار من تخطف الحجاج في كل فرصة تلوح لهم .

وكثيراً ما كانت قافلة الحج تضطر الى الرجوع وقد فاتها الحج أو الزيارة بعد ان قصدوا ذلك من مكان سحيق وتكلفوا بذل الأموال وتجشموا مشاق الأسفار في البر والبحر فكانوا يذوبون من الشوق على ما فاتهم ويتحرقون من الوجد ويبكون بصيب الدمع والناس بأجمعهم يحولون ويقولون :

(ليس لها من دون الله كاشفة) ذاهبين الى ان سطو الأعراب هؤلاء داء عضال لا تنفع فيه حيلة ولا وسيلة وقد عمت بهم الباري والى الله المشتكى . وهكذا توالت القرون والحقب والناس على هذا الاعتقاد لا يتزحزون عنه الى ان آل أمر الحجاز الى الملك عبد العزيز بن سعود منذ بضع عشرة سنة فلم تمض سنة واحدة حتى انقلب الحجاز من مسبعة تزار فيها الضواري في كل يوم بل في كل ساعة إلى مهد أمان وقرارة اطمئنان ، ينام فيها الأنام بلاء الأبحقان ولا يخشون سطوة عاد ولا غارة حاضر ولا باد ، وكان أولئك الأعراب الذين روعوا الحجاج مدة قرون وأحقاب لم يكونوا في الدنيا وكان هاتيك الذئاب الطلس تحولت الى حملان فلا نهب ولا سلب ولا قتل ولا ضرب ، ولو شامت الفتاة البكر الآن ان تذهب من مكة الى المدينة أو من

المدينة الى مكة أو إلى أية جهة من المملكة السعودية وهي حاملة الذهب والالماس والياقوت والزمرد ما تجرأ أحد أن يسألها عما معها .

ما من يوم إلا وتُحمل فيه إلى دوائر الشرطة لقيط متعددة ويؤتى بضوال فقدها أصحابها في الطرق وأكثر من يأتي بها الأعراب أنفسهم خدمة للامن العام وإبعاداً للشبهة عنهم وعن ذوبهم فسبحان محوّل الاحوال ومقلب القلوب ووالله لا يوجد في هذا العصر أمن يفوق أمن الحجاز لا في الشرق ولا في الغرب ولا في أوروبا ولا في أمريكا ، وقد تمنى المستر كراين الاميركي صديق العرب الشهير في احدي خطبه أن يكون في وطنه امريكا الامن الذي رآه في الحجاز واليمن .

وكل من سكن أوروبا وعرف الحجاز في هذه الايام يحكم بأن الأمانة على الأرواح والأعراض والأموال في البقاع المقدسة هي أكمل وأشمل وأوثق أو تاداً وأشد أناباً منها في الممالك الاوروبية والامريكية ، فأين أولئك الذين كانوا يقولون ان الاعراب لا يقدر على ضبطها انسان وان سكان الغيافي هم غير سائر البلدان فما هو ذا ابن سعود قد ضبطها بأجمعها في مملكته الواسعة ومحا أثر الغارات والثارات بين القبائل وأصبح كل إنسان يقدر أن يحوب الصحارى وهو أعزل ويدخل أرض كل قبيلة دون ان يعترضه معترض أو يسأله سائل إلى أين هو غادٍ أو رائح ولو قيل لبشر ان بلاداً كان ذلك شأنها من الفزع والهول وسفك الدماء وقطع الطرق قد مرد أهلها على هذا البغي وهذا العدوان من سالف الأزمان وانه يليها ابن سعود فلا تمضي على ولايته لها سنة واحدة حتى يطهرها تطهيراً ويعلمها أمناً وطمانينة لظن السامع انه يسمع احلاماً أو خرافات أو اتهم القائل في صحة عقله .

ولكن هذا قد صار حقيقة كلية وقضية واقعية في وقت قصير ، وما أوجده الالهة عالية وعزمة صادقة وإيمان بالله وثقة بالنفس وعلم بأن الله

تعمالي مؤيدٌ من أيده ناصرٌ من نصره يحث على العمل ويكافئ العامل
ويكره اليأس ويقول لعباده :

وَمَنْ يَقْنَطْ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (١) .

وقد سرت بشرى الأمان الذي شمل البلاد المقدسة الحجازية فعمت اقطار
الإسلام وأثلجت صدور أبنائه وارتفعت عن الحجاز تلك المعرّة التي طالما
وجم لها المسلمون وذلك بقوة ارادة الملك عبد العزيز بن سعود والتزامه
حدود الشرع ولكن ليس هذا كل شيء وقد بقيت حاجات في الصدور فلم
يزل يعوز الحجاز وسائل كثيرة الراحة والهناء من قبيل الاصلاحات المادية
العمرائية التي يتوق اليها الحجاج ولا يجدونها وهي اصلاحات عصرية لا طاقة
للحجاز بها مع قلة الوارد الى بيت المال وازدياد الخرج على الدخل وايضاً مع
استئثار اكثر بلاد المسلمين بأوقاف الحرمين الشريفين وعدم استعمالها فيما
وقفت عليه .

وقد كان يتعمت على العالم الإسلامي ان يشاطر منذ زمن طويل في إزاحة
هذه العمل المادية التي يعتذر الحجاج بحق عن أن يقوم بها وحده لاسيما ان الحرمين
الشريفين ليسا للعرب وحدهم بل لجميع المسلمين .

فلم تزل هذه المسألة موضوع الأمانى ومنتجه الآمال والناس ينتظرون فيها
الابتداء بعمل من الأعمال الى أن عقدت مصر عزيمتها على هذا الأمر الذي
تعتبر مصر جد أمينة بأن تطلع به وبأن تكون فيه السبابة والقدوة لغيرها .

ولم يطلق على مصر لقب « كنانة الله في أرضه » عبثاً بل هي من قديم
الدهر موئل الحجاج وانبار المسفيتين من أهله ، وحسبك ما قامت به مصر

(١) الحجر : من الآية ٥٦ .

عام الرمادة من ميرة الحجاز بطلب سيدنا عمر الى سيدنا عمرو رضي الله عنهما ومن بعد ذلك لم تشتد بأهل الحرمين لأواء ولا عضتهم مسغبة بناها إلا أسرعت اليهم مصر بالاغاثة وتفريج الكربة ، لم تتخلف مصر عن هذا الواجب في وقت من الاوقات. وفي هذه الأيام عندما اشتد الشعور بوجوب اصلاح الحجاز من الناحية العمرانية بعد أن أزيحت غلته من جهة تأمين السوابل كانت مصر هي الناهضة لم يد المساعدة اليه في هذا الشأن وكأما كتب في اللوح المحفوظ ان يكون محمد طلعت باشا حرب هو الطالع حرباً على الخلل والفوضى والاهمال في عمران الشرق فوجه شطراً من همته للعلماء شطر البيت الحرام الذي قد أمرنا الله بأننا حيث ما كنا نولي وجوهنا شطره لئلا يكون للناس علينا حجة ، فكان طلعت باشا حرب في هذه الحلبة ايضاً هو المجلي وكان قد بدأ من بضع سنين بتأسيس شركة الملاحة البحرية وانشأ البواخر الجوارى كالاعلام البالغة الحد الأقصى من أسباب الراحة والانتظام مثل زمزم والكوثر وغيرها مما قد سبق الكلام عليه وحصل بذلك من الفرج لحجاج بيت الله الحرام ما تحدثت به الركبان وشاع ذكره في البلدان ولكن لم يكن هذا كل ما تسمو اليه همة هذا الرجل من إصلاح عمراني وتنظيم مادي في الحجاز فقصده إلى الارض المقدسة ونظر في مختلف العلل التي تجب معالجتها وعرض نتيجة مشاهداته على الحكومة المصرية التي أسرعت في اجابته الى تقرير اللازم من هذه الاصلاحات الحيوية بالاتفاق مع الحكومة السعودية التي بذلت كل ما في وسعها لأجل تسهيل الاتفاق وتيسير الارتفاق فكان ما ستنفقه الحكومة المصرية والحكومة السعودية في هذه النوبة من اصلاحات الحجاز لإنشاء طرق وانارة كهربائية وتوزيع مياه وتطهيرها وغير ذلك نحواً من مائتين وأربعين ألف جنيه .

وهكذا تكون الدولة المصرية قد نهجت السبيل لجميع الحكومات الإسلامية في العالم أن تشاطر في القيام على قدر إمكانها بما يستلزمه الحجاز

من الاصلاحات العصرية التي لا مندوحة عنها في قطر يؤتمسه المسلمون من المشارق والمغرب سالكين اليه البر والبحر والجو وهو مرشح حتماً بواسطة طرق الانتقال الحديثة لزيادة العمران وتكاثف السكان وليكون النموذجاً للجهال السوري والمعنوي ومثالاً لطيب النجعة في الشتاء والصيف فان الذي يشتمل عليه الحجاز من المصايف البديعة كالطائف والهدى ووادي محرم ووادي ليه وجبال الشفا العالية ثلاثة آلاف متر عن سطح البحر يندر وجود اشباهه في المعمور كما فصلنا ذلك في رحلتنا الحجازية الموسومة « بالارتسامات اللطاف » لا يعوز هذه الأمكنة الممتازة بطيب هوائها وجودة مناخها وجمال إقليمها سوى الطرق المعبّدة للسيارات حتى تقرب المسافات .

وقد نشرت شركة بنك مصر عن الاصلاحات اللازمة للحجاز تقارير وافية قيمة من اقلام المهندسين البارعين الذين أنفذتهم شركة البنك إلى الأراضي المقدسة مثل محمد الجمال بك نائب المدير العام لمعامل الغزل والنسيج المصرية الذي تكلم عن حالة الحجاز العمومية وقابلية أرضها وما يلزم لهذه البلاد من الأسباب الفنية والمدارس الصناعية وأتم بمشروع المياه الذي يلزم له بناء خزان في مرتفع تعلق عنه عين زبيدة بحيث يسد كل عوز في مكة ومن جهة المياه وبمشروع إضاءة مكة بالكهرباء وبمشروع إنشاء طريق ضالحة للسيارات من جدة إلى البلد الحرام أو سكة حديدية توصل بينهما .

ومشروعات أخرى تضمنها هذا التقرير الواضح المفيد الذي ليس فيه محل نظر سوى تخمينه عدد مسلمي المعمور بمائتين وخمسين مليوناً فهذا خطأ فاحش ناشىء عن متابعة إحصاءات قديمة أوروبية غير نزيهة ، أو ثمة خطأ مطبعي تصحيحه ٣٥٠ مليوناً (ثلاثمائة وخمسون مليوناً) وهذا أيضاً دون الواقع كما أوضحنا ذلك بالاحصاءات الرسمية والبراهين الساطعة في مجلتنا « لا ناسيون آراب » رداً على الزاعمين ان عدد المسلمين ٢٦٠ مليوناً مع ان مسلمي آسيا وحدها يتيفون على ٢٦٠ مليوناً وقد بقي غير داخل في هذا

الاحصاء مسلو افريقيا الذين يناهزون مائة مليون ومسلو أوروبا الذين هم من خمسة الى ستة ملايين .

ولقد اهتمنا بهذا الموضوع عمداً لما نحسه من تخرج صدور الاوروبيين بكثرة عدد المسلمين واجتهاد الدول الاستعمارية بخاصة ان ينقصوا من عددهم ويُخسروا من وزهم. فمعصنا هذا البحث عدة مرات لما نشعر من فيتهم هذه. ثم نعود إلى قضية اصلاحات الحجاز فنقول :

إن من جملة التقارير الوافية في هذا الموضوع تقريراً محرراً بقلم المهندس المحقق السيد حسن البهيمي الذي يتكلم على تحويل مجرى السيل عن مكة وعلى تحسين طريق المسمى بين الصفا والمروة وتحسين طريقة ورود المياه بعرفات من عين زبيدة وإنارة البلد الأمين بالكهرباء وتقريراً آخر في هذه المسائل نفسها من قلم السيد مصطفى ماهر رئيس مهندسي مياه الجزيرة والجزيرة بمصر ذهب فيه إلى أنه بعد أن يتم اصلاح توزيع عين زبيدة وعين حنين التي يتفرغ منها المجرى المسمى بعين الزعفران يجب ان يباشر الحفر في سائر الآبار والأودية التي هي مظان مياه غزيرة تفيض عن حاجة مكة من جهة شرب الشفة وتكفي للزراعة والبساتين قال : ومشروع المياه سيكون مفتاحاً للبحث عن هذه الكنوز الأرضية .

وتكلم المهندس المشار اليه عن بئر زمزم وقال إن في ماءها املاحاً نافعة كألاح المياه التي يستشفى بها في أوروبا فهي من هذه الوجهة صالحة لتوضع في زجاجات معقمة مقلدة وتحمل الى الخارج وقباع فيكون منها ربح جزيل .

ثم أشار بالوسائل اللازمة لصيانتها من الجرائم الضارة وان يتولى عالم بكتريولوجي دوام تحليلها ليكون تعقيمها تاماً .

وتكلم عن عملية مياه عين زبيدة وبناء الخزانات اللازمة بتفاصيل ليس هنا مكانها .

وأصبح التقرير بالرسوم التي توضح كل شيء وأشار الى إنارة مكة بالقوة الكهربائية وما فيها من أرباح وفوائد وذلك كما قرره المهندسون الآخرون ولكل وجهة هو مولياها .

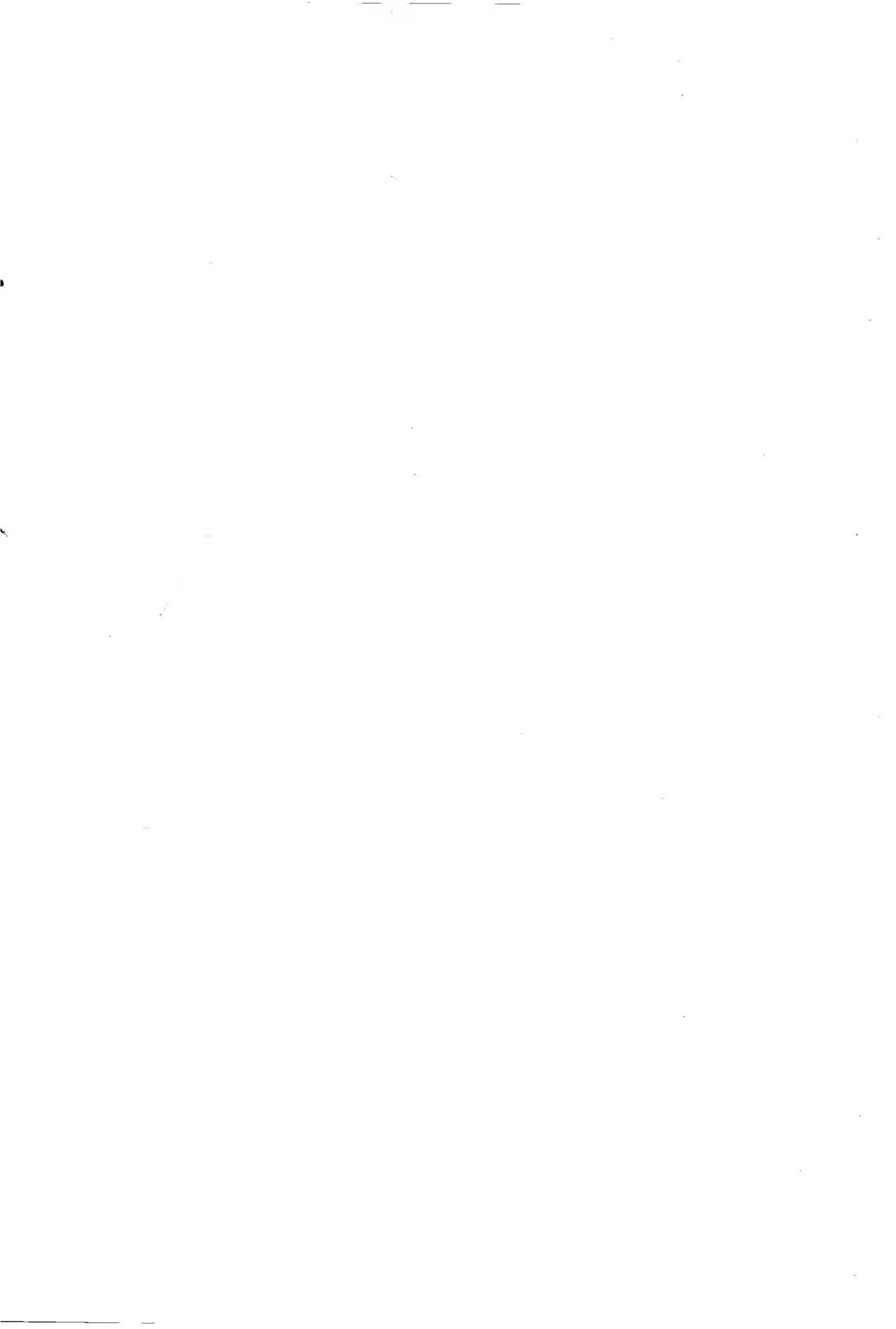
وفي تقرير المهندس الكبير السيد مصطفى ماهر كلام خاص بالمدينة المنورة التي هي جنة من جنات الأرض وفيه وصف مياهها العذبة الغزيرة وحدائقها الغناء وقد ختم تقريره الشائق بقوله :

وإني أسأل الله أن يوفق عباده المؤمنين الى مد يد المعونة الى الأراضي المقدسة قبله المسلمين كل فيما يقدر عليه للتيسير على أهلها والاحتفاظ لهذه البقاع الطاهرة بما يليق بها من الجلال والوقار . اهـ

وقنتهي مجموعة هذه المباحث التي أعظم اليد في اجرائها لطلعت باشا حرب بالتقارير الصحية الجليلة الوافية من قلم العلماء المتخصصين السادة محمد حسن العبد ومصطفى ماهر وحسن حسني راشد الكيائي بوزارة الصحة المصرية وحسن البهيمي وكيل القلم الفني ببنك مصر .

وفي هذه التقارير التحليلات المفصلة الدقيقة لمياه بشر زمزم ومياه عين زبيدة ومياه عين الزعفران في مكة وعين الزرقاء في المدينة المنورة مع التواصي الفنية اللازمة للاستفادة منها .

ولما كانت هذه المجموعة قد نشرت وتوزعت اكتفينا منها بلوحة دالة في هذه الرسالة سائلين الله ان يوفق كلا من الدولتين العزيزتين المصرية والسعودية الى إتمام هذه الاصلاحات الجليلة بحذافيرها فان الاصلاح واجب في كل مكان فكيف البقاع المقدسة .



خلاصة الجواب

« ان المسلمين ينهضون بمثل ما نهض غيرهم »

إن الواجب على المسلمين - لينهضوا ويتقدموا ويتمرجوا في مصاعد المجد، ويترقوا كما ترقى غيرهم من الأمم - هو الجهاد بالمال والنفس الذي أمر به الله في قرآنه مراراً عديدة ، وهو ما يسمونه اليوم (بالتضحية) .
فلن يتم للمسلمين ولا لأمة من الأمم نجاح ولا رقي إلا بالتضحية ، وربما كان الشيخ محمد بسيوني عمران او غيره من السائلين عن رأينا في هذا الموضوع قد ظن اني سأجيبه ان مفتاح الرقي هو قراءة نظريات (اينشتين) في النسبية مثلاً أو درس أشعة (رونتجين) أو ميكروبات (باستور) أو التمويل في اللاسلكي على التموجات الصغيرة أكثر من الكبيرة ، أو درس اختراعات (اديسون) وان سبب حادثة المنطاد الانكليزي الذي سقط اخيراً واحترق هو كونه لم ينفخ بالهليوم وإنما بالهيدروجين ، والحال في الهيدروجين - وإن كان أخف في الوزن - قابل للاشتعال ، وانه لا خوف من اشتعال الهليوم وإن كان أثقل شيئاً من الهيدروجين - وما أشبه ذلك .

والحقيقة ان هذه الأمور إنما هي فروع لا أصول ، وانها نتائج لا مقدمات ، وان (التضحية) او الجهاد بالمال والنفس هو العلم الأعلى الذي يهتف بالعلوم كلها ، فإذا تعلمت الأمة هذا العلم وعملت به دانت لها سائر العلوم والمعارف ودنت منها جميع القطوف والمجاني .

وليس بضروري أن يكون صاحب الحاجة عالماً بمملها حتى يكون عالماً
بالاحتياج إليها .

قال لي مرة حكيم الشرق السيد جمال الدين الأفغاني :
« إن الوالد الشفيق يكون من أجهل الجهلاء ، فإذا مرض ابنه اختار له
أحذق الأطباء ، وعلم ان هناك شيئاً نافعاً هو العلم لا يعلم هو شيئاً منه ،
ولكنه يعلم بسائق حرصه على حياة ابنه أنه ضروري . »
ولم يكن محمد علي عالماً وربما كان أمياً ، ولكنه بعث مصر من العدم إلى
الوجود في زمن قصير ، وصيرها في زمانه من الدول العظام بسائق هذا العلم
الأعلى الذي هو العقل السليم والارادة ، وهو الذي يبعث صاحبه الى التفتيش
عن العلوم وحمل الأمة عليها .

فالمسلمون يمكنهم إذا أرادوا بعث العزائم وعملوا بما حرضهم عليه كتابهم
أن يبلغوا مبالغ الاوروبيين والامريكيين واليابانيين من العلم والارتقاء ،
وأن يبقوا على إسلامهم كما بقي أولئك على أديانهم ، بل هم أولى بذلك
وأحرى ، فان أولئك رجال ونحن رجال ، وإنما الذي يعوزنا الاعمال ، وإنما
الذي يضرنا هو التشاؤم والاستخذاء وانقطاع الآمال . فلننفض غبار اليأس
ولنتقدم الى الأمام ، ولنعلم أننا بالفوكل أمنية بالعمل والدأب والاقدام ،
وتحقيق شروط الإيمان التي في القرآن :

وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ
الْمُحْسِنِينَ (١) .

لوزان ١١ نوفمبر سنة ١٩٣٠ .

شكيب ارسلان

« تم الجواب »

(١) العنكبوت : ٦٩ .

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة الطبعة الثانية
١١	نظرة عامة
	شكيب ارسلان ، مسقط رأسه ، نشأته ، أمير البيان ، نضاله وأهدافه ، عودته إلى الوطن ووصيته الأخيرة ، لماذا تأخر المسلمون ، ثلاثة أيام ، أثر الرسالة ، الرسالة في الميزان ، كتبه ومنشوراته بحسب تسلسلها الزمني ، أقوال الاعلام في أمير البيان .
٣٣	مقدمة الرسالة لصاحب المنار
٣٧	كتاب الشيخ محمد بسيوني عمران
٣٩	جواب الأمير شكيب ارسلان
٤١	أسباب ارتقاء المسلمين الماضي
٤٢	فقد المسلمين السبب الذي ساد به سلفهم
٤٥	التقابلة بين حالي المسلمين والافرنج اليوم

الصفحة	الموضوع
٤٩	اعتذار المسلمين عن أنفسهم ورده
٥٤	نتائج اعانة مصر لمجاهدي طرابلس وبرقة
٥٧	النشيد الطلياني في التحريض على قتال المسلمين وعو القرآن
٥٩	خيانة بعض المسلمين لدينهم ووطنهم بخدمة الأجانب
٦٧	كلمة الملك ابن سعود في تحاذل المسلمين وتعاديتهم
٧١	الموازنة بين المسلمين والنصارى في البذل لنشر الدين
٧٥	أهم اسباب تأخر المسلمين
	الجهل ، العلم الناقص ، فساد الأخلاق ولا سيما أخلاق الأمراء والعلماء ، الجبن والهلع ، اليأس والقنوط ، نسيان ماضيهم المجيد.
٧٨	شبهات الجهلاء الجبناء وردها
٨٨	ضياح الإسلام بين الجامدين والمجاهدين
٨٨	محافظة الشعوب الافرنجية على قوميتها
٩١	العبرة للعرب وسائر المسلمين برقي اليابانيين
٩٥	لماذا لا نسمي اليابان واوروبا رجعية بتدينها
١٠١	غوائل الجامدين في الاسلام والمسلمين
١٠٤	آيات القرآن في العمل المبطله لتفسير القدر بالجبر والكل
١١٣	كون المسلمين الجامدين فتنة لأعداء الاسلام وحجة عليه
١١٩	مدنية الاسلام
١٢٣	الرد على حساد المدنية الاسلامية المكابرين
١٢٥	اليونان والرومان قبل النصرانية وبمدها
١٢٩	سبب تأخر أوروبا الماضي ونهضتها الحاضرة

الصفحة	الموضوع
١٣٣	حث القرآن على العلم (باعث المسلمين على سبق الأمم في الرقي)
١٣٨	كلمة لطلاب النهضة القومية دون الدينية
١٤١	أسباب انحطاط المسلمين في العصر الاخير
١٥٣	هكذا اذا توجهت الهمم الاصلاحات المعنوية والمادية في البلاد المقدسة
١٦٣	خلاصة الجواب ان المسلمين ينهضون بمثل ما نهض به غيرهم

طبع هذا الكتاب على تطابع
دار مكتبة الحياة للطباعة والنشر
بيروت - شارع سوريا
تليفون ٢٣١٩٣٠ ص. ب. ١٣٩٠